داڤيد فونكينوس

الطاقة الإيروسية لزوجتي

ترجمة: حسين عمر

المركز الثقافي العربي

الكتاب
الطاقة الإيروسية لزوجتي
تأليف
دافيد فونكينوس
ترجمة
حسين عمر
الطبعة
الأولى، 2008
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-348-4
جميع الحقوق محفوظة
© المركز الثقافي العربي
الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 2303339 ـ 2307651
فاكس: 2305726 ـ 2 212+
Email: markaz@wanadoo.net.ma
بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01750507 ـ 01352826
فاكس: 01343701 ـ 961+
www.ccaedition.com
Email: cca@ccaedition.com

Photo © Noel Hendrickson/Masterfile

العنوان الأصلي للرواية:
David Foenkinos
Le potentiel érotique de ma femme
© Éditions Gallimard, 2004

دافيد فونكينوس

الطاقة الإيروسية لزوجتي

ترجمة

حسين عمر

المركز الثقافي العربي

ولِد دافيد فونكينوس في باريس عام 1974، تحت التأثير المزدوج لبرج العقرب. نالت روايته الثالثة، **الطاقة الإيروسية لزوجتي**، جائزة روجيه-نيميه لعام 2004. وكان قد حصل في العام 2003 على منحة مؤسسة هاشيت.

إلى فكتور

كيف سـأبلغكِ، أيّتها الموجة الشـهوانية،
يا مَنْ تمنحينني أجنحة...

م

عبثاً يكشف لي العقل ديكتاتورية الشبق.
لويس اراغون

القسم الأوّل

نمطٌ من الحياة

1

كان لهكتور رأس بطل. ويوحي بأنّه جاهزٌ للانتقال إلى الفعل، لمواجهة كلّ الأخطار الهائلة لإنسانيتنا، لتهييج الحشود الأنثوية، لتنظيم عطلة عائلية، للحديث في المصاعد مع أحد الجيران، وحينما يكون في أحسن حالاته، لفهم فيلم لدافيد لنش. سيكون إذا صحّ القول بطلاً لزماننا له ربلتان مكتنزتا العضلات. ولكن ها هو يقرّر أن ينتحر. سبق ورأينا أبطالاً أفضل منه. جعله ميلٌ ما للاستعراض، أن يختار مترو الأنفاق. سيعلم الجميع بموته، وسيكون ذلك بمثابة عرضٍ إعلاميّ تمهيدي لفيلم لن يحقّق النجاح. كان هكتور يترنّح على مهل، وهو يستمع، تأدّباً، إلى الوصايا الرنانة لئلاّ يشتري بطاقته على عجل؛ إذا ما تأخّر سيكون من المفيد تذكّر ذلك. لم نكن نعرف شيئاً عنه، ولذلك كنّا نتمنّى له ذلك التأخّر، على الأقلّ لمعرفة إن كان يجب الوثوق بما في رأس الناس. هذا جنون، رأس البطل هذا. بدأ يرى بتشوّش، فقد ابتلع أقراصاً منوّمة قبل موعد أجله. قد يهون الموت على النائم. أخيراً، كانت تلك فرصة ما دام هكتور قد تسبّب لنا بقلقٍ ما. لم يعد يرى

أيّ شيء. وُجِدَ ممدّداً في ممرّات مترو الأنفاق، أقرب إلى محطة «شاتليه لو هال» منه إلى الموت.

بدا جسمه المتهالك أشبه بوليدٍ مجهَض. جاء نقّالان لهما رأسا رياضيّين قويّين (ولكن، لا ثقة بالرؤوس، الآن) لإنقاذه من كلّ عيون العمّال الفرحين برؤية حالة أسوأ من حالتهم. لم يكن هكتور يفكّر سوى بشيءٍ واحد: بفشله في انتحاره، كان يحكم على نفسه بالحياة. نُقِل إلى مستشفى أُعيد دهانه حديثاً؛ ومن الطبيعي أن يُقرأ في كلّ مكان «دهانٌ طري». ولسوف يضجر لبضعة أشهر في ذلك القسم المخصّص للنقاهة. وسريعاً جدّاً، أصبحت متعته الوحيدة صورة مكرّرة: مراقبة الممرّضة حالماً، بغموض، بمداعبة نهديها. كان ينام على تلك الصورة الثابتة، تماماً قبل أن يقرّ بقبح الممرّضة. كان يعيش خاملاً في حالة تبدو فيها البشاعة أسطورية. بدا ذلك الحكم قاسياً؛ كان يمكن أن تبدو تلك الممرّضة مثيرة للشهوة بين جرعتي مورفين. وكان هناك ذلك الطبيب الذي يمرّ، من حينٍ لآخر، وكأنّه يدخل إلى سهرة. قلّما كانت اللقاءات تتجاوز دقيقةً واحدة، وكان يجب أن يبدو على عجلةٍ من أمره لإظهار أهميته (كان ذلك الشيء الوحيد الذي يحرص عليه). كان ذلك الرجل الفائق السمرة يطلب منه مدّ لسانه ليستنتج بأن له لساناً جميلاً. جميلٌ أن يكون للمرء لسانٌ جميل، فهو يشعر بأنّه بخير مع لسانٍ جميل، كان ذلك يجعل هكتور أحسن حالاً. لم يكن يعرف كثيراً ما كان ينتظره، كان في حالة مزرية ومحبطة. عُرِض عليه الاتّصال

بالعائلة أو بأصدقاء إن كان للسيّد أصدقاء (ذُكرت، سرّاً، إمكانية استئجار من يؤانسه). رُفِضَت هذه الخيارات بصمتٍ مهذّبٍ بعض الشيء، فلندع ذلك. لم يشأ هكتور رؤية أحد. على نحوٍ أدقّ، لم يشأ أن يراه أحد على حالته تلك. كان خجلاً من كونه شبه رجلٍ بين اللاشيء والأقلّ من اللاشيء. كان يحدث له أن يتّصل بصديقٍ وهو يوهمه بأنّه في الخارج. مدهشٌ هذا «**الغراند كانيون**»[1]، يا لها من شقوق؛ وكان يغلق السماعة بينما كان هو نفسه «**غراند كانيون**».

وجدته الممرّضة جذّاباً، حتى أنّها قالت له بإنّه رجلٌ مميّز. هل يمكننا أن نضاجع امرأة ترانا مميّزين؟ هذا سؤالٌ مهمّ. بداهةً، كلاّ: لنقل إنّ النساء لا يضاجعن أبداً، هذا كلّ شيء. اهتمّت بحكايته؛ أخيراً، ما كانت تعرفه عن حكايته، هو ملّفه الطبي. هذا يعني إلى حدٍّ ما أنه كانت هناك رسوماتٌ دعائية أكثر بهاءً. هل توجد تلك المرأة التي تمنحك جسدها لأنّها تحبّ طريقتك في عدم نسيان الأوقات المنتظمة للقاحات شلل الأطفال؟ آه، إنّك تثيرني، يا رجل اللقاحات المميّز. غالباً ما كانت الممرّضة تحكّ ذقنها. في تلك الحالات، كانت تظنّ نفسها أنها الدكتورة؛ لا بدّ من القول إنّ هناك حدوداً للدور. فكانت تقترب كثيراً من سرير هكتور. وكانت لها كذلك طريقة مثيرة جنسياً في تمرير وإعادة تمرير يدها على

(1) Grand Canyon: اسم أودية كولورادو في أريزونا في الولايات المتّحدة. (المترجم)

الملاءة البيضاء، كانت أناملها النظيفة جدّاً أشبه بسيقانٍ جميلة على سلّمٍ، وكانت تمسح البياض.

سوف يُخرَج هكتور من المستشفى في أوّل شهر آذار. في النهاية، ليست للشهر أهمية، بل لم يكن لأيّ شيءٍ آخر أهمية. أبدت البوّابة (الحارسة)، المرأة التي لم يعد بمقدور أحدٍ أن يمدّد عمرها، قلقها لغياب المستأجر. تعلمون أن هذه الطريقة في ادّعاء القلق، هذه الطريقة في أن يحلم المرء بأنّه في عام 1942، مع صوتٍ حادٍّ، قريبٍ جدّاً من طريقٍ، قد تُخرج قطاراً عن السكّة.

«سيّد بالانشيين، كم يسرّني أن ألقاك من جديد. كم كنتُ قلققة...».

لم يكن هكتور مغفّلاً؛ وبما أنّه كان غائباً منذ ستّة أشهر، كانت تحاول توضيب هدايا عيد الميلاد الأخير. لم يشأ أن يستقلّ المصعد، مخافة أن يصادف جاراً وأن يضطرّ لشرح قصّة حياته، فجرجر قدميه على الدرَج. سُمِع لهاثه القوي، واجتمع الناس خلف مناظير الأبواب. وعند مروره، فتحوا الأبواب مع أنه لم يكن اليوم يوم الأحد. كانت تلك العمارة تفيض بالمتعطّلين. هناك باستمرار جارٌ سكّير - إنه جار يجمعنا به الكثير من النقاط المشتركة كمستقيمين متوازيين في ما بينهما - يرغمك على الدخول إلى بيته. كلّ ذلك ليسألك ثلاثاً «كيف حالك؟»، وللإجابة ثلاثاً «بخير، وأنت كيف حالك؟». ألفةٌ لا تُطاق؛ حينما يخرج المرء من نقاهةٍ، يودّ لو أنّه يقيم في

سويسرا. أو، الأفضل، أن يكون امرأةٍ في الحرملك. تذرّع بألم في الكبد ليتمكّن من العودة إلى بيته، فسأله الجار بإلحاح: «ومع ذلك لم تجلب معك تشمّعاً في الكبد من سفرتك؟». بشَّ هكتور وتابع رحلته. أخيراً، فتح الباب، وضغط على مقبس الكهرباء لينير المنزل. لم يكن قد تحرّك أيّ شيء من مكانه، بطبيعة الحال. ومع ذلك بدا لهكتور وكأنّ دهوراً قد مرّت؛ كانت تفوح رائحة التقمّص. وكان الغبار قد سهر على المكان، قبل أن يضجر إلى درجة التكاثر.

حلّ الليل، ككلّ الأماسي. أعدّ لنفسه فنجاناً من القهوة، لكي يضفي على أرقه طابعاً طبيعياً. جالساً في مطبخه، أصغى إلى القطط وهي تحبو في المزاريب؛ حارَ في ما يفعله. فكّر في كلّ البريد الذي لم يتلقّاه. وقع نظره على مرآةٍ صغيرة مشتراة من سوق للبضائع المستعملة، كان يتذكّر تماماً ذلك السوق، وأرعبته تلك الذكرى في الحال. الحمّى التي ألمّت به يوم شرائها، عاودته من جديد، مثلما نشمّ رائحة شخص متأمّلين صورته. كان عليه حينها ألاّ يفكر في ذلك، انتهى كلّ ذلك؛ فقد شُفيَ. سوف لن يذهب قطّ مرّة أخرى إلى سوقٍ للبضائع المستعملة لشراء مرآة. تأمّل صورته للحظة. بدا له وجهه، بعد تلك الشهور الستّة من النقاهة، مختلفاً جداً. وللمرّة الأولى في حياته، تصوّر المستقبل آمناً؛ بالتأكيد، كان يخادع نفسه. ولكن لم يكن أحدٌ هنا يريد - أيضاً - أن يخالفه في وهم هذا التألّق. وقبل التقدّم نحو ذلك المستقبل، كان يمكن التركيز على ذلك الماضي غير الناجز.

2

كان هكتور على وشك أن يعيش اللحظة الأعظم في حياته؛ فدون أن يتوقّع ذلك، وجد نفسه وجهاً لوجه مع شعار «نيكسون هو الأفضل» العائد إلى أيام الحملة الانتخابية لانتخابات الجمهوريين التمهيدية لعام 1960. يجب أن نعلم أنّ بعد فضيحة ووترغيت، أصبحت شعارات الحملات الانتخابية الخاصّة بنيكسون نادرة نسبياً. رفّ أنفه الفتّان كأجفان مراهقة ينمو نهداها بأسرع مما هو متوقّع. بفضل ذلك الاكتشاف، كان قادراً على أن يفوز بالمسابقة الوطنية لأفضل حائز على شعارٍ لحملة انتخابية. هذا شيءٌ نعرف عنه القليل (إنّها متعة حقيقية أن نتقاسم معارفنا)، ولكن توجد مسابقات لجامعي الشعارات. نشاهد طوابع نادرة وقطع نقدية في جوٍّ احتفاليٍّ بقدرِ ما هو قديم ومتروك. كان هكتور قد انضمّ إلى فئة الشعارات، الفئة التي برزت على نحوٍ مدهشٍ في تلك السنة (ولكون السبب هو انتكاس محبّي المشابك الذين كسروا، في تلك الفترة، السوق على نحوٍ محزنٍ؛ فارتدّ الكثير من الفصحاء إلى الشعارات). كان لا بدّ من امتلاك القوّة لبلوغ الأدوار ربع النهائية. لم يرفّ

لهكتور جفن، كان يعلم بتفوّقه، وفي زاوية رهيفة من ذاكرته، عاش من جديد لحظة الاكتشاف الهائل. كان يمشي، ويداه إلى الأمام، يداه كهوائيين، والحمّى في قدميه، كان جامع الشعارات مريضاً يبحث باستمرار عن شفائه. منذ يومين، ثار بجنون، في غياب شعار؛ فقد مرّت ستّة أشهرٍ وهو يحدّق في الشعارات، ستّة أشهر، بعاطفة جيّاشة، ستّة أشهر لم تكن حياته خلالها سوى شعار.

يجب الحذر دائماً من السويديين غير الشُقر. كان هكتور هادئ الأعصاب، كان يمكن أن يُستعاد الشعار «نيكسون هو الأفضل» في أيّة لحظة في مواجهة النظرة الوقّادة للسويدي؛ النظرة التي تدفع إلى التفكير بنسبة الانتحار في السويد. إذا كان من المستحيل الاحتفاظ باسمه في الذاكرة، فلا ننسى نتيجته الرفيعة للسنة الماضية، فالسيّد هو صاحب لقب بطل جامعي شعارات الحملات الانتخابية. في الحياة المدنية، كان السويدي صيدلانياً في صيدلية في السويد. قيل إنّه ورث هذه المهنة؛ غالباً ما تشبّه الحياة المهنية لجامعي الشعارات ببزّة فضفاضة جدّاً. أمّا حياتهم الجنسية، فهي هادئة كإنسانٍ خاملٍ أثناء العطلات المدرسية. فجمع الشعارات واحد من الأنشطة التي لا تعتمد على الإغواء. والأشياء المجمّعة هي أسوار أشبه بغبار الأحصنة. وحده الذباب يمكنه أن يرى عن كثب الحزن البارد الذي يدلف منها. ذلك الحزن الذي يُنسى في نشوة مباراة. كان السويدي، في تلك اللحظة، في طور نسيان الكلمة

حتى كلمة دواء. لم يعد والداه، اللذان ربّياه على حبّ محقونٍ في الأوردة، موجودين. حبس الجمهور أنفاسه، فكان ذلك النهائيّ واحداً من أكثر النهائيات نبضاً بالحياة والذي أتاح لنا فرصة أن نعيشه. التقت نظرة هكتور بنظرة البولونيّ الذي كان قد أقصاه في نصف النهائي؛ شعرنا كأن في فمه ماء، وذلك دليلٌ على أنّه لم يهضم هزيمته. كيف كان بوسعه أن يؤمن للحظة ببلوغه النهائيّ مع شعارٍ لليش فاليسا؟ لم يدع السويدي يزعج نفسه سوى بمستواه الثقافي، كان هادئاً. كان يحكّ من حينٍ لآخر صدغيه، وكنّا نشعر تماماً بالخدعة الصغيرة التي سعت إلى الاضطراب، الخدعة الصغيرة الوضيعة التي قد تنال من صاحبنا هكتور. محاولات مضحكة، صاحبنا هكتور قويّ، سنواتٌ من جمع الشعارات، كان واثقاً من صاحبه نيكسون. لا شكّ أن ذلك سيكون قد أثّر في نيكسون، بمعرفته أنّ هكتوراً سيربح شيئاً بفضله. بالتأكيد قد لا يشكّل ذلك أمراً عظيماً في كتب التاريخ، وكان الاحتمال ضعيفاً في أن تتجاوز نتيجة ذلك المساء القدرة السلبية الفائقة لووترغيت. مع ذلك، لم تكن الأمور بسيطة جدّاً (الارتياب في سويديين ليسوا شُقراً). أخرج الدنيء شعاراً لفرقة البيتلز. كتم الجمهور ضحكةً، ولكن السويدي، غير مضطربٍ، شرح بأنّ الشعار هو لحملة انتخابية لكي يكون منتخباً على رأس *Sergent Pepper Lonely Hearts Club Band*. لا بدّ أن المسكين قد حصل على معلومات تخصّ جوهرة هكتور وبالتالي لم يجد عرضاً آخر سوى التشويش على لجنة التحكيم؛ يا لها من حشرة سويدية قذرة.

وسار مخطّطه سيراً حسناً طالما أنّ لجنة التحكيم (الحقّ يُقال، كان الأمر يتعلّق برجلٍ ملتح) قد بشّت. ثار هكتور، ولكن بطريقة مضحكة في المحصّلة لأنّه لم يكن يجيد الثوران؛ صرّ على أسنانه، إذا صحّ القول. لنعترف في الحال بالنفاق: وجدت اللجنة أن محاولة المنافق مبتكرة جدّاً، وأعلنت هكتورَ خاسراً. كان لائقاً بما فيه الكفاية، قام بحركة خفيّة من رأسه تجاه الفائز وغادر القاعة.

وحيداً، أجهش بالبكاء. ليس لفشله، فقد سبق وأن مرّ بالكثير من اليسر والعسر، كان يعلم بأنّ مهنة قد مورست في تلك اللحظات. كلاّ، كان يبكي لسخرية الموقف، الخسارة أمام البيتلز؛ كان ذلك مضحكاً، فبكى. قادته تلك اللحظة الساخرة إلى سخرية حياته؛ للمرّة الأولى، شعر بقوّة تدفعه إلى التغيير، قوّة تتيح له القطع مع تلك العملية المجنونة للجَمع. طيلة حياته، لم يكن إلاّ قلباً نابضاً على إيقاع الاكتشافات. لقد جمع الطوابع والشهادات ورسومات السفن على الرصيف البحري وبطاقات المترو والصفحات الأولى للكتب والخلاّطات وعيدان المقبلات الصغيرة[2] البلاستيك وسدادات والقناني واللحظات معك والأقوال المأثورة الكرواتية وألعاب «الكيندر»[*] والفوط الورقية والفول وأشرطة الأفلام والذكريات

(2) عيدان صغيرة وناعمة مدبّبة تُغرَز في المقبلات مثل الزيتون وسواه. (المترجم)

(*) ألعاب مفككة توضع في بيضة شوكولا «الكيندر».

وأزرار الأكمام وموازين الحرارة وأرجل الأرانب وسجلاّت الولادات، ومحارات المحيط الهندي وضجيج الساعة الخامسة صباحاً وأغلفة الأجبان، باختصار، لقد جمع كلّ شيء، وفي كلّ مرّة، بنفس الإثارة. كانت حياته تتنفّس الولع؛ مع كلّ مراحل النشوة المحضة والإعياء الشديد الذي قد يستتبعه ذلك. لم يكن يتذكّر أيّ لحظة من حياته ولم يجمع فيها شيئاً، لم يبحث خلالها عن شيءٍ ما. مع ذلك وعند كلّ مجموعة جديدة، كان هكتور يعتقد بأنّها ستكون الأخيرة. ولكنّ بانتظام، كان يكتشف في شبعه مصادرَ نهمٍ جديد. إذا صحّ القول، كان عاشق الشيء.

*

فاصل

هذه الصورة الأخيرة هي الأدقّ. غالباً ما يُقال إنّ هناك زيرَ نساء، ويمكن اعتبار هكتور زير الأشياء. بعيداً عن مقارنة المرأة بالشيء، نلاحظ في المقابل تماثلات واضحة، ويمكن لقلق بطلنا أن ينعكس في قلق غير المؤمنين، وكلّ الرجال المخترَقين بندرة الأنوثة. أخيراً، كانت تلك حكاية رجلٍ يهوى النساء... بعض الأمثلة: حصل لهكتور أنه كان مقسّماً بين مجموعتين: بعد ستّة أشهر من حياةٍ مكرّسة لأغلفة الأجبان، كان يمكن أن تصيبه فجأةً صعقةَ حبٍّ لطابعٍ رآه صدفةً، وأن تنهشه غريزةُ تركِ كلّ شيء في سبيل هذا الشغف الجديد. في بعض المرّات، كان الخيار مستحيلاً جسدياً، وكان هكتور يعيش أشهراً من القلق في التأرجح بين حياتين. فكان لا بدّ من

عرض المجموعتين في ركنين متقابلين من الشقّة، وتسوية حساسيات كلّ قطعة من المجموعة؛ كان هكتور يضفي سلوكيات إنسانية على تلك الأشياء، ولم يكن من النادر أن يفاجئ غيرةَ طابعٍ (La jalousie d'un timber) تجاه فعل ولادة. بالتأكيد، كانَ الأمر يتعلّق بفترات تكون صحّته الذهنية فيها غير مُرضية أكثر من أيّ شيءٍ آخر.

من جهة أخرى، كانت كلّ مجموعة تثير إحساساً مختلفاً. كان بعضها، مثل صفحات الكتب، أكثر شهوانية من غيرها. كان الأمر يتعلّق بمجموعات يُقال إنها حسّاسة، ذات صفاءٍ كبير، مجموعات كانت، ما أن تختفي، تتحوّل إلى مصادر أسطورية للحنين. ومجموعات أخرى أكثر شهوانية، مجموعات ذات مساءٍ إذا صحّ القول، كانت تمسّ مناطق أكثر قسوةً، وجسدية؛ كانت، على سبيل المثال، تلك حالة العيدان الصغيرة للمقبلات. لا يمارس المرء حياته مع عود مقبلات.

*

طبعاً، كان قد حاول أن يعتني بنفسه، أن يمنع نفسه من الشروع في جمعٍ، أن ينفطم؛ لا شيء آخر يفعله، كانت المسألة أقوى منه، كان يشعر بصعقة الحبّ لشيءٍ وتلحّ عليه حاجة لا تُقهَر لكي يجمعه. كان قد قرأ كتباً؛ وكانت كلّها تروي إمكانية طرد أو تعزيم الخوف من الهجر. انكبّ بعض الأطفال المهمَلين قليلاً من جانب والديهم على جمع الأشياء ليطمئنّوا. الهجر هو وقتُ حربٍ؛ يُخشى كثيراً من الاشتياق إلى ما يُجمَع. في حالة هكتور، لم يكن من الممكن القول إنّ

والديه قد أهملاه. لم يكن من الممكن، كذلك، القول إنّهما قد أفرطا في احتضانه. كلاّ، كان تصرّفهما يتلاشى في منتصف الطريق بين هذين التصرّفين، في نوعٍ من الرخاوة اللازمنية؛ فلنرَ.

3

لطالما كان هكتور ابناً بارّاً (رأينا، وبالنسبة للبعض، أوضحنا الكتمان التامّ الذي كان قد انتحر معه؛ كانت هناك مهارةٌ في طريقة الإيهام هذه بأنّه كان في الولايات المتّحدة). كان ابناً بارّاً حريصاً على إسعاد والديه، وجعلهما يتعلّلان بوهم تألّقه. أمام بابهما، رسَمَ هكتور ابتسامته. كانت عيناه محاطتين بالزرقة. حينما فتحت أمّه الباب، لم ترَ ابنها كما هو عليه وإنّما كما رأته على الدوام. إذا كانت علاقاتنا العائلية هي أفلامٌ تُشاهد في الصفوف الأوّلى (لا نشاهد أيّ شيء)، كان والدا هكتور يغوران صراحةً في الشاشة. انطلاقاً من هنا، سيكون في وسعنا أن نعقد مقارنة بين الحاجة للجمع والرغبة في الظهور بفظاظة مثل **كائنٍ متبدّل** (يمكننا القول بكلّ بساطة **نابض بالحياة**).

سنحتفظ بهذه الفرضية إلى وقت لاحق.

بشكلٍ عام، نحتفظ بكلّ الفرضيات إلى وقت لاحق.

هذا التصرّف الذي ارتكز على عدم تحطيم أسطورة الابن

المتألّق استتبع صعوباتٍ وعملاً رهيباً على الذات. هذه الأمور أكثر بساطة للتخيّل منها للإنجاز. فالإيهام بأننا سعداء يكاد يكون أصعب من أن نكون كذلك حقّاً. كلّما كان يبتسم أكثر كلّما كان والداه يرتاحان أكثر؛ كانا فخورين بأنّ لهما ابناً سعيداً ولطيفاً. شعرا وكأنّهما مع جهازٍ كهربائيٍّ منزليٍّ لا نهاية لمدّة كفالته كمن يحظى براتبٍ تقاعديٍّ أبديّ. في عيون والديه، كان هكتور علامة ألمانية. اليوم، الأمر أكثر قسوة من أيّ وقتٍ كان، فالبوح بالانتحار على حافة شفتيه المزرقّتين، وكان يودّ، لمرّة واحدة، ألاّ يمثّل ثانية الملهاة، وأن يكون ولداً أمام والديه، وأن يبكي بدموعٍ غزيرة جدّاً بحيث قد تجرف، في فيضٍ منها، الألم. لا شيء ليفعله. ارتسمت ابتسامة على وجهه وأعاقت الحقيقة ككلّ مرّة. كان والداه مغرمين دائماً بكلّ ما كان ابنهما يفعله. أخيراً، كانت كلمة **عاطفة** بالنسبة لهما شعوراً خاطفاً، نوعاً من رعشة الابتسامة. «آه حسنٌ؟ لقد وجدت حامل صابونةٍ جديد... هذا رائع!» وتتوقّف الأمور عند هذا الحدّ. كان ذلك حماسة حقيقيّة (لم يكن هكتور قد طرح السؤال مرّة أخرى)، ولكن مَنْ كان ينتمي إلى قمّة جبلٍ روسي؛ بعد ذلك، سقط بشدّة في الصمت. كلاّ، ليس هذا صحيحاً كلّياً: كان يحدث لوالده أن يربّت على ظهره، ليعبّر له عن كامل اعتزازه. كان هكتور، في تلك اللحظات، يرغب في أن يقتله؛ دون أن يعرف تماماً لماذا.

كان هكتور يأكل في بيت والديه حتى وإن لم يكن جائعاً (كان ابناً بارّاً). تتتالى الوجبات برتابة وسط هدوءٍ بالكاد يعكره

رشف الحساء. كانت والدة هكتور تحبّ كثيراً إعداد الحساء. أحياناً، لا بدّ ببساطة من اختزال ما نعيشه في تفصيلٍ واحدٍ أو اثنين. هنا، في قاعة الطعام هذه، لا يسع أحدا إلاّ أن يكون مأخوذاً بساعة الحائط. ضجيج ثقيلٍ مخيف، تكاد دقاتها العائدة لتحديد الساعة تسبّب الجنون. تلك الحركة هي التي ضبطت دقّة مواعيد الزيارات. حركة الزمن المتثاقلة تلك، والقماش المشمّع. ولكن قبل المشمّع، لنبقَ نتحدّث أكثر عن ساعة الحائط. لماذا يولع المتقاعدون كثيراً بساعات الحائط الصاخبة؟ أَهي طريقةٌ للاستمتاع بآخر كسرات الخبز، للإحساس بقضاء اللحظات الأخيرة والبطيئة لقلبٍ نابضٍ؟ كان يمكن توقيت كلّ شيء في بيت والدَي هكتور؛ حتى الوقت الذي تبقّى لهما أن يعيشاه. والمشمّع! إنّه أمرٌ لا يُصدّق كلّ هذه المحبّة التي يكنّها كلّ هؤلاء المسنّين للمشمّع. يشعر فتات الخبز بأنّها بحالٍ ممتازة وهي عليه. يبتسم هكتور بلطف ليدلّل على أن الوجبة كانت لذيذة. ابتسامته تذكّر بتشريح ضفدع. كان عليه أن يفرّق كلّ شيء جيّداً، وأن يكون فظّاً في عاداته، وأن يشدّد على الخطوط وكأنّنا نخرج مباشرةً من لوحة للفنّ الشعبي. إنّها خصوصيّات الأطفال المتأخّرين، هذا الغياب الجذّاب تماماً للدقّة. كانت والدته في الثانية والأربعين عند ولادته، وكان والده عند عتبة الخمسين.

في مكان ما كان الفارق بينهما جيلاً.

كان لهكتور أخٌ يكبره بعشرين عاماً، إذاً كان أخاً كبيراً

جدّاً. يمكننا أن نستنتج من ذلك أنّ والديه كانا يقفان على النقيض تماماً من هوس التجميع. لقد فكّرا بإنجاب هكتور (الأمر الذي وفّر المادة لهذه الرواية، ولنشكر عرضاً هذه المبادرة)، في اليوم الذي غادر فيه أرنست (الأخ المعنيّ) بيت العائلة. طفلٌ في آنٍ واحد، ولو أنّ سنّ اليأس لم يكن قد جاء لقطع الطريق على هذا الاندفاع النظري الجميل، لكان لهكتور أخ أو أخت أصغر منه، ولكان سيُسمّى أو تُسمّى دومينيك. عُرِفَ هذا الفهم للعائلة بأنّه خلاّق، وكما هو الحال غالباً في كلّ ما يبدو خلاّقاً، لم يكن أيّ شيء كذلك. كنّا في محيط قليل الإثارة كفاية، محيطٌ يستلزم وقتاً لفهم الأمور. هذا يسمو على كلّ مدائح التروي. لتبسيط الأمر: كان أرنست قد ولِد، وأبهج والديه، وعند رحيله، فكّرا: «لقد كان صالحاً... ماذا لو أنجبنا ولداً آخر مثله؟» كان الأمر بهذه البساطة. لم يكن والدا هكتور يركّزان أبداً على أمرين في آنٍ واحد. صُدِم أرنست كثيراً حينما علِم بالخبر، وهو الذي حلِمَ، طيلة طفولته، بأن يكون له أخٌ أو أخت. ربّما سيكون بوسعنا أن نقدّر ماذا يفعل طفلٌ في اللحظة التي كان يهمّ فيها بالشفاء من النزعة السادية، ولكن بما أننا كنّا نعرف والدي هكتور، كنّا نعلم بأنّ السادية لم تكن تعجبهما.

لمرّة واحدة في الأسبوع، كان هكتور يرى أخاه الكبير حينما يأتي لتناول الحساء العائلي. يشعر الأربعة بأنّهم في حالة جيّدة معاً. يسود جوٌّ أشبه بالعزف الرباعي لباخ، الموسيقى

على الأقلّ. لسوء الحظ، لم يكن تناول الوجبات يستغرق وقتاً أطول مما هو في العادة. يتحدّث أرنست عن أعماله، ولم يكن أحدٌ يعرف قطّ الأسئلة المناسبة لطرحها عليه لإطالة فترة مكوثه. كان هناك عجزٌ ما في فنّ الفصاحة وحيويّة الاستفهام. كانت والدة هكتور، وهذه المرّة، لنسمِّها باسمها الأوّل، ميراي (ونحن نكتب هذا الاسم، ينتابنا الشعور وكأننا عرفنا باستمرار أنّها كانت تُدعى ميراي؛ كلّ ما عرفناه عنها كان يتعلّق على نحوٍ مرعب ببيئة ميراي) تذرف الدمع حينما يغادر ابنها الكبير. لطالما أثارت تلك الدموع غيرة هكتور. فهم بأنّه سوف لن يُبكى عليه لأنّه سيعود سريعاً جدّاً: حتى تكون هناك دمعة، لا بدّ من الفراق ليومين على الأقلّ. سيكون في وسعنا تقريباً أن نلتقط دمعة ميراي، ومن خلال وزنها، أن نعرف متى سيعود أرنست. آه، هذه دمعة ثمانية أيام! دمعة كبيرة، وداخل هذه الدمعة التي هي فقاعة الحيوات المحبِطة، برز هكتور من جديد في زمننا الراهن، زمن الارتياب السرديّ، ليكون أمام خيبة فظيعة: بينما كان بالغاً ويأتي لشرب الحساء مرّة في الأسبوع، لا تبكي والدته عليه. فجأة، أصبحت تلك الدمعة التي لا تزن شيئاً، الثقل الأكبر الذي لم يتحمّله قلبه قط. نحن أمام بداهةٍ، أمّه تفضّل أخاه عليه. بطريقة غريبة، شعر هكتور بأنّه يكاد أن يكون بخير؛ لا بدّ من فهم ذلك، إنّها المرّة الأولى في حياته التي يجد نفسه فيها أمام بداهةٍ.

عرف بطلنا تماماً بأنّ ما شعر به زائف؛ هذه بداهةٌ كبيرة.

لوالديه تشكيلة مشاعر محدودة جدّاً. يحبّان الجميع بطريقة مماثلة. إنّه حبٌّ بسيط يبدأ من الإسفنج وحتى ابنهما. أراد هذا الابن البار، الذي تصوّر نفسه ضحيّة تمييزٍ، أن يكنَّ لوالديه نوايا خبيثة، بل وشيئاً من الكراهية. حلم، في بعض الأيام، أنّ والده قد صفعه صفعتين قويّتين؛ وأتاحت صورة علامة حمراء على بشرته أن يشعر بأنّه حيّ. مرّت فترة فكّر خلالها بأن يثير ردود فعلٍ عند والديه، بأن يصبح طفلاً مثيراً للمشاكل؛ في النهاية، لم يتجاسر على ذلك أبداً. كان والداه يحبّانه؛ بطريقتهما في الحبّ بالتأكيد، ولكنّهما كانا يحبّانه. إذاً، كان عليه أن يجسّد دور الابن البار مهما كلّف الثمن.

*

فاصلٌ حول والد هكتور لكي نعرف لماذا حياته ليست سوى شاربين، ونبذة عن نظرية تعتبر شركتنا محبّة للظهور.

كان والده يتنهّد من حينٍ لآخر، وفي هذه التنهيدات، كان بوسعنا أن نستمدّ جوهر تورّطه في تربية ابنه. الحقيقة، كان ذلك أفضل من لا شيء. كان هذا الأب (لنقل صراحة، برنار هذا) قد أطلق مبكراً شاربيه. لم يكن ذلك، كما قد يعتقده عددٌ كبيرٌ من الناس، تصرّفاً وقحاً البتّة: كانت هناك حكمةٌ في هذين الشاربين، تكاد تكون عملاً دعائياً. لفهم برنار هذا، لنسمح لأنفسنا بوقفة عنده. سيثير الحديث الشجون. كان والد برنار، المولود في عام 1908، قد مات ميتة بطولية

عام 1940. كلمة بطوليّ هي معطفٌ فضفاض، يمكن حشر كلّ شيء فيه. لم يكن الألمان قد هاجموا بعد، وخطّ ماجينو كان ما زال سليماً، وكان والد برنار يقيم مع فوجه في قرية صغيرة في الشرق. قرية صغيرة تقيم فيها امرأة تزن مائة واثنين وخمسين كيلوغراماً، وقد كانت تعتقد بأنّها تستطيع الاستفادة من مرور فوجٍ. وإذا لم تكن تستهوي الرجال عادةً، كانت لها كلّ الفرص في زمن الحرب، في زمن الكبت. باختصار، قرّر والد برنار مهاجمة الجبل، وبانزلاق راية، في عودةٍ لا نجرؤ على تخيّل فظاعتها، وقع ما نسمّيه عادةً اختناقاً. هذه الحكاية، سكوت، أُخفيت عن العائلة، بتزيين كلّ كلمة بطوليّ. كان لابنه عشرة أعوام. فتربّى برنار على إجلال بطله الأب، ينام تحت صورة شخصية تخفي صورة مريم العذراء. ويمجّد، كلّ مساءٍ وكلّ صباح، ذلك الوجه الواقف بالكلمة، ذلك الوجه المزوّد بشاربين طافحين بالحيوية. لا نعلم بدقّة في أيّ لحظة حدث التشوّش الدماغي الذي جعل برنار موسوماً، طيلة حياته، بشاربي والده. صلّى لئلاّ يكون أمرد، و قدّس أولى شعيرات ذقنه. حينما حظي وجهه بشرف تلقّي شاربين لائقين، شعر بأنّه أصبح رجلاً، أصبح والده، أصبح بطولياً. مع التقدّم في العمر، ارتاح، ولم يعد ينزعج من مشاهدة مساحة بورٍ على شفاه ولديه؛ كان كلٌّ واحدٍ منهما يعيش حياة الشَعر التي كان يريد أن يعيشها. اعتقد برنار أنّ جميع الرجال قد أصبحوا بلا لحية، وأنّ الأمر كان يتعلّق بمناورة من شركتنا الحالية. كان يحبّ أن يردّد بأننا **نعيش في عصرِ الشوارب فيه أقلّ ما**

يكون. شركتنا تحلق الشعر، هذا محض تفاخر! كان يصرخ. ودائماً، بعد تلك الانفعالات الكلامية، كان يعود إلى أفكاره الشخصية المرهقة باللاشيء.

*

خلال مراهقته الباهتة، كان هكتور يزور أخاه بانتظام. يبحث لديه عن نصائح لكي يفهم والديهما على نحوٍ أفضل. كان أرنست يقول إنه لم تكن هناك طريقة استخدام، موضوعة جانباً، ربّما، للإيهام بأننا كنّا مولعين بحساء ماما. لم تكن هناك حاجة حتى للتردّد في شنّ بعض الغزوات في مجال التملّق الذي قلّما يُحتَرم عندما نرغب في الذهاب للنوم في بيت صديق («أعتقد بأنّه عليّ أن أحمل ترمساً من حسائك، يا ماما»). فقط، لم يكن لهكتور أصدقاء؛ على الأقلّ، أصدقاء لينام عندهم. كانت علاقاته تقتصر غالباً على تبادل الأحاديث أثناء اللعب بالورق في باحة الاستراحة. كان بالكاد قد بلغ الثامنة من عمره، حينما ذاعت شهرته كجامعٍ هائل للأشياء. هكذا، كان هكتور يطلب نصائح من أخيه، وسرعان ما أصبح هذا الأخ مرجعَ حياته. ليس لأنّه أراد أن يشبهه، وإنّما كان الأمر يحاكي ذلك. على نحوٍ أدقّ، كان ينظر إلى حياته قائلاً في نفسه بأنّها ربّما ستكون مثل حياته. كان كلّ شيء يكمن في «ربّما» لأنّ مستقبله، بصراحة، كان يبدو له غامضاً؛ كان مستقبله صورة سلبية لمصوّري الباباراتزي.

كان أرنست رجلاً طويلاً ضامراً وقد تزوّج بامرأةٍ قصيرةٍ

صهباء مثيرة جدّاً. وكان هكتور في الثالثة عشرة من عمره حينما اكتشف الزوجة المستقبلية لأخيه، وحلم للحظةٍ بأنّها ستتكفّل بتربيته الجنسية. نسي بأنّ حيواتنا قد أصبحت روايات من القرن العشرين؛ بعبارة أخرى، كان زمان فضّ البكارات المثير في القرن التاسع عشر قد ولّى. استمنى بإفراط متخيّلاً جوستين إلى يوم زواجها. «العائلة»، كان هناك شيءٌ من القداسة في هذه الفكرة. بعد قليلٍ من ذلك، أنجبت جوستين، الصغيرة لوسي. حينما كان والداها يعملان، كان يذهب غالباً لرعاية الطفلة، ويلعب معها بلعبة العروسة. لم يكن يصدّق أنّ يكون عمّاً لأحدٍ. وفي نظرة تلك الطفلة، كان يحسّ بشعور عدم عيش حياة طبيعية تماماً؛ أمام البراءة، يكون المرء أمام الحياة التي لم يعشها.

كان هكتور قد درس القانون دون أن يكمله. لم يكن يهتمّ بأيّ شيء عدا تكوين المجموعات؛ آه، فقط لو كان الجمع مهنة! داوم كمعاونٍ في مكتب أخيه، ولكن لأنّه لم يكن قد نال شهادته، كان يخاطر بأنّ يكون هذا المنصب قمّة مرتبته المهنيّة. من جهة، كان ذلك يريحه بما أنّه يتحاشى بذلك كلّ القلق المتعلّق بخطط المهنة، والأسوأ من ذلك، الصراعات الداخلية بين كلّ أولئك المحامين الذين سينبغي ثلم أسنانهم. لاحظ أنّ النجاح يسير بالتوازي مع الجمال؛ كان لبعض المحاميات النهود والسيقان التي تعدنهنّ بقضايا رفيعة. كان هكتور يتكوّم في مقعده حينما كنّ يمررن من أمامه؛ بالتأكيد، كانت تلك

الحركة دون جدوى لأنّه كان يبتعد لمترين لئلا يلاحظنه. مهما يكن من أمر، لم تكن النساء تستهويه إلا في عتمة غرفته، لبضعة دقائق يومياً. كان يحدث له أن يخون الاستمناء أحياناً بالذهاب والانشغال في بيت مومس، ولكن لم تكن لذلك حقّاً أهمية بالنسبة له. خلال كلّ تلك السنوات، كانت النساء يسترحن في الغرفة الخلفية لهيجانه[3]. ينظر إليهنّ، ويُعجب بهنّ، ولكنّه لم يكن يشتهيهنّ. أخيراً، لنكن صريحين، حينما كان هكتور يفكّر ألاّ يشتهي النساء، كان يعتقد خاصّة بأنّه لا يمكنه أن يثير الرغبة فيهنّ. كان يردّد بأنّ وقته محجوز بالكامل بمحبّته للمجموعات؛ وإن لم يشكّ أحدٌ في هذه البداهة الواضحة، كان يمكن مع ذلك التأكيد أنّ الهائمة الأولى بجسده ستغمره أفقياً. كان يشكر أخاه لمساعدته بهذه الطريقة، ويردّ ذلك الأخ آلياً: «بين الأخوة، لا بدّ من حسن المساعدة المتبادلة». كان هكتور محظوظاً لأنّه كان لديه أخٌ بمثابة أبٍ.

لنعد إلى اللحظة التي كان هكتور يتناول فيها حساءه. لم يأتِ لرؤية والديه منذ ستّة أشهر. لم ينظر إليهما. كان الجوّ عائلياً على نحوٍ عجيب، صادفت تلك العودة يوم عيدٍ. يا لها من سعادة أن يلتقوا به مجدّداً بعد سفرته الطويلة! وشُغل برنار بالسؤال «والأمريكيون، هل لهم شوارب؟». كابنٍ بار، أسهب هكتور في الحديث عن الشوارب العجيبة للكاليفورنيين،

(3) نستثني هنا الأيام الستّة للعلاقة شبه الحارّة مع امرأة يونانية إسبانية الأصل.

الشوارب الشقر والكتّة مثل الفوقس[4] الاسكندينافي. كانوا هائمين في مزاج رائق، مزاجٌ رائقٌ جميل فيه قد يبدون بلهاء فرحين، وفي قلب هذا الشعور بالسعادة الخفيّة، راودت هكتور فكرة بأنّ الوقت قد حان ربّما ليقول في نفسه الحقيقة. كان الأمر يتعلّق بفكرة استحالة الاحتفاظ أكثر بعذابه. لم يعد في وسع قلبه الكبير أن يسِع ما كان قد عاشه. للمرّة الأولى، سيكون هو بنفسه، ولن يعود يختبئ في البزّة التي فُصِّلت له بمقاسٍ خاطئ؛ هذا سيريحه، وسيتمكّن أخيراً من إيقاف المسخرة، ولن يعود يختنق. حينما نهض، رفع والداه عيونهما.

«لديّ ما أقوله لكما... لقد قمتُ بمحاولة انتحار... لم أكن في الولايات المتّحدة وإنّما كنتُ في استراحة نقاهة...».

بعد صمتٍ، أخذ والداه يضحكان؛ ضحكة نقيضة للشبق. كم كان ذلك مضحكاً! كانا يقهقهان لحظّهما في أنّ لهما ابناً لطيفاً وساخراً إلى هذه الدرجة، هكتور الهكتورات، الابن الساخر! هذا الابن الذي، كيف نقول ذلك، كانت لديه مشكلة مصداقية صغيرة. كان قد صُنّف في فئة «الابن البار»، ما دام كان يأتي ليأكل حتى وإن لم يكن جائعاً. والأبناء البررة لا ينتحرون؛ في أسوأ حال، يخونون زوجاتهم حينما يذهبن في عطلة إلى «هوسغور». تأمّل هكتور وجه والديه، كان وجهاهما خاليين من التعابير، جامدين. حُكِم عليه أن يكون ولدهما

(4) طحلب أخضر خفيف يقذفه البحر. (المترجم)

الأبله. في نظرتهما، لمح انعكاس صورة ذاك الذي كانه عشية أمس. كانت تلك العلاقة سجناً، مؤبّداً.

كانت والدته تحبّ كثيراً أن ترافقه إلى عتبة الباب، مثل المضيفات في نهاية رحلات الطيران، وهو يكاد يضطرّ لأن يقول شكراً واعداً أن يسافر من جديد على نفس الخطوط. خطّ الحساء. ما أن يصبح في أسفل البيت، كان عليه دائماً أن يسير لبضعة أمتار لئلاّ يعود يسمع الطقطقة المنبئة بالموت.

4

كان هكتور في قاع الموجة، الموجة التي كانت بنفسها في قاع المحيط، المحيط الذي كان بنفسه في قاع الكون، ثمّة أمر ما يجعله يشعر بأنّه صغير.

بعد ذلك النصف النهائيّ المتواضع الذي قال خلاله بأنّه ينبغي الحذر من السويديين غير الشُقر، بكى لسخافة حياته. غير أنّ إحساساً إيجابياً نجم عن الاشمئزاز: وانطلاقاً من الاشمئزاز يمكننا التقدّم. وجد هكتور مقعداً؛ جالساً، كانت الأفكار تستقرّ. أجال المسكين ببصره على كلّ ما حوله. رأى هكتور رؤوسَ سويديين تبرز، وليجتنب إعصاراً استوكهولمياً، أغمض عينيه. لم يكن نيكسون سوى رجلٍ طيّبٍ متواضع استحقّ تماماً، ووترغيت خاصّته. كان نيكسون تلك اللحظة التي يلامس فيها المرء القاع. أطلق هكتور تنهيدة وكان ذلك حلاً مهمّاً؛ قرّر وقف هواية جمع الأشياء. كان عليه أن يحاول العيش ككلّ الناس، ألاّ يعود يهتمّ بالأمر، وألا يعود إلى الجمع أبداً.

في لحظة خاطفة، شعر بأنّه مرتاحٌ تماماً، بيد أنّ ذلك لم يكن سوى لحظة خاطفة، إذ استعاد ذاكرته، مثل ارتدات الأمواج الضالة، ذكرى القرارات السابقة التي لم يتّخذها أبداً. كلّ تلك المرّات التي صمّم فيها على إيقاف كلّ شيء، جاثياً باكياً، وكلّ تلك المرّات التي انتكس فيها وهو يرى قطعة نقدية، ثمّ قطعة أخرى، ثمّ أخرى. كان قراره النهائي بسيطاً: في سبيل إيقاف الجمع، عليه ألاّ يعود ويجمع أيّ شيء، وألاّ يرى أيّ شيء مضاعفاً، وأن يركّز بحميّة على الوحدانية.

كنّا في بداية سنة 2000، الأمر الذي شكّل عبئاً زائداً على هكتور. لم يكن يتحمّل السنوات الأولمبية، معتبراً إياها مشؤومة بالنسبة لكلّ المآثر الهزيلة التي كنّا نحن الآخرون نسعى لإنجازها. كان ذلك على نحوٍ خاصّ فهماً مرتبطاً بالمرارة الناجمة من أنّه لم يتمّ الاعتراف قط بمسابقات جامعي الأشياء كرياضة أولمبية: مع احتمال أن يُذلّ من جانب سويديٍّ، مثلما حدث له تحت سماء سيدني. سعى إلى إشغال أفكاره لئلاّ يجابه، لحظتها، الصراع الذي يعتمل في صدره. عاد إلى بيته، ووضع المفكّرة على مكتبه. كتب عند تاريخ 12 حزيران: يوم 1. وضمّ قبضته وكأنّه كان يوجّه الضربة القاضية.

بعد ذلك، أمضى ليلة مبهجة إجمالاً.

حتى أنّه حلم بامرأة سمراء تهمس له: «اطلب أمنية وسألبّيها لك».

*

صباح اليوم التالي، ارتكب خطأه الأوّل عند تشغيل التلفاز. عملياً، كانت كلّ المنتجات معروضة بشكلٍ مزدوج. بل كانت هناك عبارة «اثنان في واحد»، وبدأ قلبه بالخفقان. غيّر القناة وصادف القناة التلفزيونية التسويقية التي يشرح فيها المقدِّم بأنّه لقاء «فرنكٍ إضافي»، سيمكن الحصول على طابعة مع الحاسوب؛ أي أنّ فرنكاً لم يكن سوى مسحوق رمزي. في أيامنا، لبيع منتَج، يجب تقديم قطعتين منه. لقد انتقلنا من مجتمع الاستهلاك إلى مجتمع للاستهلاك المضاعف. وبالنسبة للنظارات، تُباع لكم صراحة أربعة أزواج يُزعَم أنّها علبٌ للفصول، وكأنّ الشمس قد أصبحت شخصية فائقة القوّة يجب التعامل معها بحرفية. في هذه الحالة المحدّدة الرباعية الأضعاف من الاستهلاك، كان التحريض الفعّال على جمع الأشياء فظيعاً، وإجرامياً.

*

في نهاية الصبيحة، ذهب هكتور إلى العمل. مع شيءٍ من الضيق، اعترف لأخيه بقراره. عانقه أرنست بقوّة وضمّه بشدّة بين ذراعيه، كان فخوراً به. بما أن والديهما لم يدركا جيّداً خطورة هكذا وضع، في المقابل فإنه كان دائم الاهتمام بعاطفة أخيه الصغير: ليست له أيّة حياة جنسية، حياة مهنية لا تتعلّق سوى بالتعاضد العائلي («بين الأخوة، لا بدّ من التعاون»)،

وانقضت ساعات في تكديس أغلفة الأجبان. كان أرنست، رغم طوله الفارع، عاطفيّاً صغيراً. ذرف دمعه؛ في حالةٍ من التأثّر، أكّد له دعمه الكامل، وكامل محبّته. «لا بدّ للمرء من الاعتراف بأنّه مريض لكي يتماثل للشفاء»، كان مولعاً بالتلفّظ بالعبارات الرنّانة. ثمّ غادر ليعالج أمراً في غاية الأهمية. كان أحد مسؤولي "Gilbert Associate and Co" (يُلفَظ جيلبرت، إنّه انكليزي)، الشركة التي تأسّست عام 1967 من جانب شارل جيلبر، لأنّه غالباً ما كان لمسؤولي Gilbert Associate and Co أموراً في غاية الأهمية تنبغي معالجتها.

في العمل، كان الجميع يحبّ هكتور. فهو موظّف مثاليّ يؤدّي الخدمة على الدوام بابتسامة. إذا كانت النساء الشابّات لم يكن ينظرن إليه، فإنّ النساء الأصغر سنّاً كنّ يتعاطفن معه لتواضعه، ويجب الاعتراف بذلك. أيضاً، حينما شاع خبر قراره في الديوان، أحاطت ضجّة كبيرة من التعاطف بالمقدام هكتور. مرّات كثيرة، كان بعض الموظّفين قد شهدوا نوبات جنون جامح؛ غالباً ما ترك آثار حمّى عند مروره. وهذه الضجّة من التعاطف أصبحت في اليوم ذاته نوعاً من التضامن عبر مكالمات هاتفية فاقت الحدود. طيلة فترة ما بعد الظهيرة، تلقى التشجيع، وأدلى الكثيرون بتعليقاتهم على ذلك. تشجّع، نحن معك من كلّ قلبنا، أقلع صهري عن التدخين في الأسبوع الفائت، قرّرت زوجتي ألاّ تشبعني جنسياً بعد الآن، باختصار، حظي بالحقّ في كلّ خبرات فطام الوسط القانوني. في نهاية

المطاف، وضعت سكرتيرة أشبه بشرطيّة،على وشك التقاعد سلّة على مكتب هكتور؛ كانت نقوداً! نُظِّمت عملية تبرّع لمساندته في هذه المحنة. في الولايات المتحدة، كانت التبرّعات عادةً بالنسبة للعمليات غير الممولّة من قبل الضمان الاجتماعي، للذين لا يحظون به، ونتيجة لذلك، كانت التبرعات تدفع غالباً بالدولار من أجل عمليات زرع الكلى. كان هكتور، إذا صحّ القول، سينعم بحياةٍ جديدة.

مساءً، في غرفته، عاين هكتور ذلك المال واعتبر أنّ المبلغ كان الثمن الذي ينبغي دفعه للشفاء من مرضه. كانت تلك فكرة فارغة، ولكنّه سعى لأن يجوجل ردود أفعاله الملامسة للتشوّش ليتجنّب التفكير بأصغر طابعٍ أو عودٍ صغير. ولأنّه كان معتاداً على أن يُحصي الخراف كي ينام، أصبح منزعجاً جدّاً. لتسوية الأمر، أُتبع الخروف بحصانٍ، ثمّ الحصان بحصان بحرٍ، ثمّ حصان البحر بسنجابٍ أصهبٍ، ومن ثمّ لأنّ غايتنا ليست تنويم القارئ، نوقِف هنا هذا التعداد الذي استغرق جزءاً كبيراً من الليل. بالنسبة للقصة القصيرة، مرور القندس هو ما يختم ذلك.

مرّت الأيام، من دون أدنى عملية جمع. بدأ هكتور يؤمن بقابليته النادرة حتى الآن للفطام. مع ذلك، كان يُحذِّر: «الأيام الأولى دائماً هي الأسهل» (عبارة أخيه، طبعاً). أيامٌ سهلة لا سيما وأنّه وجد نفسه فجأة في قلب شغفٍ مذهل. كان يجري

السعي إلى مساندته كمرشّحٍ سياسيّ، وكان المحامون ينتبهون ألاّ يُسأل مرّتين عن الشيء ذاته في النهار. وعُيِّنت سكرتيرة لتهتمّ بما لم يعالجه من ملفّات غير متشابهة. بات هكتور أشبه بطفلٍ ملكيّ لا بدّ من تسليته منهجياً بطريقة مختلفة. كان يمكن التساؤل عن سبب تلك الحماسة الجماعية. صحيحٌ أنّ الجميع كانوا يكنّون له المحبّة، ولكن هل كان ذلك سبباً كافياً؟ بدا وكأنّ الجواب لا. في سياقٍ مهنيٍّ فائق التنافسيّة ومتمحورٍ على المظاهر، فإن ضعف موظّف (لنوضّح، موظّف لا يشكل خطراً على التراتبية) يوحّد الحديّة بنفس القدر. كان هكتور شبيهاً بماكينة جديدة للقهوة في صالة لبيع إطارات السيارات. يُنسَج، من حوله، نسيجٌ اجتماعي. ولكي نقول كلّ شيء، ما كان يحدث لم يكن يفلت من عيني مدير الموارد البشرية الذي سرعان ما بشّر بما اعتبره منهجاً راديكالياً. في سبيل مردودية مشروعٍ، ليس هناك ما هو أفضل من توظيف محبَطٍ في منصب ثانوي.

كان لذلك الحبّ المحاط به، ذلك التورّط للآخرين في معركته، تأثيرٌ فاسد لعدم استقراره. كرياضيّ فرنسي حقيقي، أخذ ينسحب تحت الضغط؛ ذلك الضغط الذي ارتكز على عدم تخييب الأمل. كان يبكي في المراحيض، ويضع ورق المرحاض تحت عينيه لئلاّ يثير صخباً. كان، وهو القويّ جدّاً وقاسي القلب جدّاً خلال عشرات جولات التفاوض، والمسيطر على فنّ الخُدع الصيني وفنّ التركيز العصبي النفسي، ينهار

تماماً. شعر بأنّه ضعيفٌ، أعزل. بدا له فجأة بأنّه، لتغيير حياته، عليه على الأقلّ أن يموت.

غادر هكتور مكتبه قبل الموعد. في الطريق، تعثّرت ساقاه كعاشق غرٍّ. محاطاً بتوتر لا إرادي، هرع إلى مكتبٍ للبريد. خرج منه، مرتاحاً لبضع ثوانٍ، مع سلسلة من الطوابع الأكثر تفاهةً. فشعر من جديد باشمئزازٍ عنيف ورمى الطوابع. جَمْع الطوابع، يا إلهي، إنّه من أسوأ أنواع الجمع! مع احتمال الانتكاس، وكذلك الاستسلام للأصل! الطوابع، الطوابع، لم يكفّ عن ترداد هذه الكلمة التي كانت تؤلمه. لماذا ليست القطع النقدية أيضاً؟ كان ذلك نوعاً من الانتكاس السهل، الرديء. قام بنصف دورةٍ، راغباً في التغلّب على قدره، مع التوهّم بأنّ عليه ببساطة أن يعود أدراجه ليلغي أعماله الأخيرة. عند العودة إلى المكتب، كان لا يزال غثيان الطوابع ينتابه، لم يتمكّن من معاودة العمل. لحسن الحظّ، حصل حدث. تقدّمت جيرالدين (السكرتيرة التي قد تكون شرطية) نحوه بمشيتها المختالة المعتادة التي صنعت بالتأكيد أجمل أيام هواية «شتاء 1954». نظر إليها هكتور ببطء؛ وانفتح فمه النسائي.

5

صباح الخير، أنا مارسيل شوبير. مثل اسم المؤلّف الموسيقي، سأله هكتور قاصداً أن يكون مرحِّباً، وقاصداً بشكل خاصّ أن يتلفّظ بأوّل شيءٍ يخطر بباله. كلاّ (هذا يُكتَب شوبير). ما أن انتهت تلك المقدّمة، متى حدث شيءٌ ما في عيني الرجلين، شيءٌ لطيفٌ وحميم، شيءٌ أشبه بوضوح الصداقة.

كان شوبير ابن أخ جيرالدين بالمصاهرة. جاءت لرؤيته لأنّها كانت تعلم أنّ ابن الأخ هذا سبق وعانى من مرض هواية جمع الأشياء ونجا منه. عرضت ببساطة أن يلتقيا، وظهر شوبير لهكتور قائلاً: «صباح الخير، أنا مارسيل شوبير». كانت لديه أفضلية حاسمة على هكتور لكونه لم يكن قد غيّر المجموعة منذ عام 1986. إنّه هاوٍ مستقرّ يعيش إلى الآن في ولع شبه روتينيّ. كان يعمل في مصرفٍ يُشبع له شغفه بفضل أقساط مناسبة. سافر والداه للعيش في فنزويلا (وقد أصبح والده سفيراً بعدما عجز عن كتابة رواية قبل سنّ الثلاثين)، وتركا له قطعة

أرضٍ مهمة مساحتها خمسة وستين متراً مربّعاً في الدائرة الثانية من باريس. قريبة من ساحة البورصة. في اللحظة التي كان فيها جدار برلين ينهار، التقى بامرأة تُدعى لورانس، وأسّسا منذ ذلك الحين علاقة مستقرة. لا بدّ أن البعض يعرف لورانس بما أنّها كانت مهاجمة في فريق كرة الطاولة الذي أُعجبنا بنتيجته الرفيعة في بطولة العالم في طوكيو؛ بالنسبة للآخرين، سوف نراها في الحال. لم يرغب الزوجان في إنجاب طفل، كان ذلك خياراً كغيره. كانا يستقبلان أحياناً أصدقاء على العشاء في جوٍّ لطيفٍ دائماً. في حالة المزاج الممتاز، يمكن الاستمتاع ببعض نكات شوبير بينما تُغسَل آنية المائدة في المطبخ.

كانت هناك حياة سعيدة.

كانت المعلومة الرئيسية التي باح بها مارسيل لهكتور هي وجود اجتماعات لجامعين مجهولين. تُعقَد كلّ يوم خميس في الطابق الأوّل من مبنى سرّي. كانت حارسة المبنى تعتقد بأنّ الأمر يتعلّق بطائفة ولكنها، إذ اتخِمَت بالهدايا، باتت لا تعود تفكّر بأيّ شيء أبداً. استمع هكتور إلى مارسيل؛ للمرّة الأولى، كان أمام شخصٍ استطاع أن يفهمه. منذ الخميس التالي، لحِقَ به. قدّم هكتور نفسه إلى الحاضرين الثمانية في ذلك الاجتماع. وعبّر جميعهم عن محبّتهم الصادقة. روى كيف أنّ كلّ حياته لم تكن سوى سلسلة عبثية من عمليات الجمع العبثية. أراحه اعترافه، ولكن أقلّ كثيراً من أن يستمع للآخرين. كان الهدف من الاجتماعات المجهولة هو ألاّ يعود

يشعر بأنّه منعزل. فالشفاء يصبح ممكناً ما أن يكتشف المرء معاناة الآخرين. كانت تلك أيضاً غرابة كلّ تلك الاجتماعات: ما بدا أنّه أوجّ التعاون كان المشروع الأكثر تبجّحاً.

وهكذا كانت المشاركة بنقاشات غريبة:

«مررت بفترة هوهولوفيليستية[5] طويلة حتى آذار 1977، تماماً قبل أن أصبح كلافالوجيستياً[6].

- آه حسناً، كُنتَ كلافالوجيستياً؟

- نعم، كنتُ بحاجة لأن أشعر بالطمأنينة، أن أتعلّق بشيءٍ ما.

- من المؤكّد أنّ ذلك كان أفضل من اللوقانوفيل[7]!

- آه، غريبٌ جدّاً!»

هذه مجرّد عيّنة من الأجواء التي تسبق الاجتماع. بعد ذلك، يجلس الجميع (عدا مَنْ يجمع الفترات التي يكون فيها واقفاً) ويدير مارسيل النقاشات. يتكلّم كلٌّ منهم مداورةً، ويتمّ التركيز بشكلٍ خاصّ على الذين انتكسوا خلال الأسبوع. كان ذلك طريفاً. في ما خصّ هكتور، أجمع الكلّ على القول بأنّه سيتعافى سريعاً. كان شابّاً وقد اكتُشِفَ المرض في الوقت المناسب. بالنسبة لآخرين، وهنّا نفكّر خاصّة بـ«جان»، المولع تماماً بالقطارات الصغيرة جدّاً وبالقدّاحات، لم يكن هناك

---

(5) حالة اللاتوازن واللااستقرار.

(6) حالة يتلبس فيها الانسان الجندي الروماني المسلح بالدبوس.

(7) عاشق القديس لوقا.

الشيء العظيم الذي ينبغي فعله؛ كان يقتل نفسه قتلاً رحيماً وبلطف في الاجتماعات. وكان هناك أيضاً البولونيان اللذان كان لهما، أغرب عملية لبولونيين اثنين في الروايات. بدت حالتهما ميئوسٌ منها.

في المساء ذاته، بدرت من هكتور بعض التصرّفات المستهترة ما أثار عضلاته. نام على جانبه الأيسر، ستكون الحياة بسيطة. في الأيام التالية، أصبح طيّباً جدّاً في العمل، حظي بملاحظات مشجّعة من رؤسائه، وكانت سيقان النساء تجعل قلبه يخفق. ذهب لرؤية السكرتيرة التي لولاها لما كان التقى مارسيل أبداً، وقدّم لها مائة واثنتين وأربعين ملعقة خزفية، هي بقايا المجموعة المذكورة. تأثّرت جدّاً، وظهر تأثّرها بسهولة. وكنّا قد أصبحنا في يوم الاجتماع الثاني. اعترف هكتور، واقفاً، وبفخر مؤكداً، أن أحداً لم يفكر تقريباً بالمجموعات وصفّق له الحضور. فرحنا لأفراح الآخرين، وساد تضامنٌ صادق. بعد الاجتماع، عرض عليه مارسيل القيام بجولة يوم السبت لرؤية البحر. وأيضاً لتنشّق هوائه، أضاف هكتور. نعم، تنشّق هوائه. لنقل كلّ شيء، كان مارسيل عازباً في عطلة نهاية الأسبوع تلك لأنّ لورانس عندها مؤتمر عن كرة الطاولة، بالأحرى، ثمّة نوعٌ من اجتماع لقدامى لاعبي كرة الطاولة، وجرى كلّ شيء في قصرٍ في سولونيا[8].

(8) سولونيا: ضاحية في الحوض الباريسي، وهي مشهورة بأنها منطقة صيد طيور وأسماك. (المترجم)

السبت، قبالة البحر، كان مارسيل شاعرياً. منح التأمّل في الأفق صوتَه أجنحةً. أنت ترى يا هكتور، الحوت بعيدٌ من هنا، هذا مرضك... ومعاً، بتوحيد روحينا، سنفعل كلّ شيء لجذب ذلك الحوت نحو الشاطئ... سيكون مرضك وهو يرسو حوتاً جانحاً على الشاطئ. كان جميلاً جدّاً أن أكلا بلح البحر. طلب هكتور شمبانيا وإن لم يكن يحبّها كثيراً. كان عليه ألاّ يعارضه في إظهار روحه المضيافة. إنّه من النوع الذي يتكلّم بصوتٍ جهوري، والذي يربّت على ظهر أصدقائه؛ وإن لم يكن يتمتع بمظهر المصارع، ضغط هكتور على نفسه خلال لحظات الصداقة الجميلة تلك. عند تناول الحلوى، سأل مارسيل صديقه الجديد كيف تخيّل حياته بعد إيقاف هواية الجمع. ساد صمت خفي الحديثَ. لم يتخيّل هكتور أيّ شيء، وخاصّة المستقبل. ألحّ مارسيل، وذكر حياةً جميلة مع كلبٍ وامرأة. أنت تعلم، لدى لورانس صديقات حسناوات، لا بدّ من حبّ النساء الرياضيات اللواتي لهنّ ظهرٌ متين بعض الشيء، ولكنهنّ جميلات، إن أردت، سنعرّفك بإحداهن. يا له من صديق، مارسيل هذا. حقد هكتور على نفسه لإساءته الظنّ، ولكن حدث له، للحظة، وان اعتقد بأنّ لا بدّ أن يكون حزيناً جدّاً في حياته كي يحشر نفسه في حياة مارسيل. أفكارٌ سيئة بالتأكيد، فقد كان مارسيل صاحب روحٍ طاهرة.

كان مارسيل يجمع الشَعر. الشَعر الأنثوي طبعاً. كرجلٍ محظوظ، كان يستمتع في شقّته بركنٍ مخصّصٍ لشغفه وانتاب

هكتور انفعالٌ بالقدرة على زيارة المكان المقدّس. تلهّى بخفّة لئلاّ يغيظ صديقه، ذاهباً إلى حدّ إطلاق بعض التأوّهات الناجحة بما يكفي لمخادع مبتدئ. شعر بضغط مَنْ يتلقّون أسراراً. لا بدّ من معرفة أنّ الاعتراف بجامع يتمّ لانعدام الاهتمام الذائع الصيت الذي يبديه بمجموعات الآخرين. بطريقة ودّية ماكرة، سعى مارسيل أيضاً لأن يختبر الناقِه هكتور. سرعان ما فرضت القطعة الأولى من المجموعة: «شرطة 1977» الاحترام. اعتقد هكتور بأنّ شعراً بلا امرأة مثل يدٍ بلا ذراع؛ بإتباع سحر الشَعر الأنثوي، تقصّف في عدم فظيع. لا يحقّ للشَعر أن يكون دروباً مسدودة. انهمك مارسيل في شرح حول عقد السبعينات، فلنستمع. كان يعتقد بأنّه لم تحظَ أيّ فترة بالشَعر مثلما حظيت به أواسط السبعينات. حول هذه النقطة، لم يكن بوسع أحد أن يُخطِّئه، كانت تلك السنوات غزيرة الشَعر بلا ريب. الفترة الأسوأ بالنسبة للصّلع. فكّر هكتور، خلال تطوّر النظرية المارسيلية، بوالده وبانبهاره بالشوارب. استُعرِضَت شقراوات 1983 و1984، وسمراوات 1988 الخالدات، والسمراوات المستشقرات لبضعة أيام خلت. سأل هكتور، بتهذيبٍ كبير، كيف حصل على هذه العجائب. اعترف مارسيل بأنّه كان متواطئاً مع حلاّق في الحيّ المجاور. ناداني ما أن عاين عيّنة نادرة ومضيتُ أنهب الكنز. مجموعة فريدة وسهلة، لا قَلق، لا تشوبها شائبة.

عادت لورانس، واقترحت أن تعدّ العشاء. تثاءب هكتور ولكن ذلك لم يكن كافياً لكي يتهرّب. سمح لنفسه بأن يسأل

صديقه إن كانت زوجته لا تغار من مجموعته.

لورانس غيورة؟

لم يستطع مارسيل أن يضحك لفرط بلاهة السؤال. لم تكن لورانس غيورة، أعدّت لورانس لحماً مشوياً احتفظت به لحين عودتها؛ كانت تلك واحدة من اختصاصاتها، مغرمةٌ بالتهام اللحم المشوي عند عودتها من مباراة كرة الطاولة. ممتاز، قال هكتور. على كلٍّ، لم يكن لديه الخيار، قُدّم له تلقائياً قدح من المارتيني عوضاً عن المقبّلات. حدّق فيه مارسيل مباشرة وعبّر عن رأيه بتفخيم: «أقدّم لك مجموعتي وزوجتي... أنت حقّاً جزءٌ من حياتي!». تأثّر هكتور لأن يكون **حقّاً** جزءاً من حياة أحدٍ ولكنّه لم يستطع الامتناع عن الإحساس بالضيق. لم يكن قد تجرأ بعد على الاعتراف بأنّه لا يحبّ اللحم المشويّ بتاتاً.

نادت لورانس هكتور. أرادت أن تعرف أذواقه المطبخية، على نحوٍ أدقّ، ذوقه في مجال الطبخ، فذهب إلى المطبخ. آه أنا، تعلمين. لم يكن له ذوقٌ خاصّ. اقتربت منه وكأنّها أرادت بغتةً أن تغرس أظافرها في وجهه. لم يعد بوسع هكتور قط أن يميّز قسمات وجهها، ولا ذلك اللسان المتحرّك الذي دسّته في فمه. بالتوازي مع ذلك الاعتداء الفموي، جسّت له خصيتيه. ثمّ، وهي تتراجع أيضاً بغتةً، قالت بعنف:

«ممتازٌ هذا الشواء، أعددته لك قليل الاستواء!».

تلعثم هكتور وحمّل المارتيني مسؤولية ذلك. ومع ذلك،

شعر برغبة جامحة في أن يشرب المزيد. وهو يشرب بشراهة، أغمض عينيه لئلاّ يرى وجه هذا الصديق الذي خانه للتوّ، هذا الصديق الذي أطلعه على مجموعته وقدّم له زوجته. كان حشرة قذرة. تُقدّم له نساء، ويقدّم خصيتين. احتاج إلى لحظةٍ مناسبة قبل الإقرار بالاعتداء عليه جنسياً. دارت كلمةٌ في فمه، كلمة واضحة، ومع ذلك كلمة لم تجرؤ على الخروج؛ مُغتَلِمة! يا إلهي، كان مارسيل يعيش مع مُغتَلِمةٍ. اقترب مارسيل بنفسه منه، وكأنّه يقرأ في جُرمه، سأل:

«هل أعجبتك، زوجتي؟».

سارع إلى القول كلاّ، قبل أن يُدرِك فظاظة ذلك الجواب، فاستدرك على نحوٍ محزنٍ قائلاً نعم، طبعاً. لم يكن هكتور بطلاً اجتماعياً. لماذا حدثت هذه الحكاية له هو؟ تعرّق، واقترب مارسيل منه ليهمس في أذنه بأنّ النساء اللواتي يلعبن كرة الطاولة لديهنّ طريقة سحرية في الجسّ، أخيراً شاهدتَ ما أقصده. أُنعِشَ هكتور ببضع صفعات، ورافقه مارسيل إلى بيته.

وقف مارسيل بجانبه وأكّد عليه أن يتّصل به كلّما دعت الحاجة. كانت ليلته سيئة جدّاً، آلمته صورٌ لمجموعاتٍ قديمة، حلم بخزائن مملوءة تغنيه عن الحاجة إلى أيّ شيء. تشبّث بأحلامه، ولم يطق أن يضطرّ لفتح عينيه ثانية. ولكن في الصباح الباكر، رنّ الجرس، وكان الرنين ملحاحاً جدّاً بحيث تظاهر بالتماوت. سُلِّمَت إليه صندوقة ضخمة، ما أن وُضِعت، من قبل ساعي البريد الناضح عرقاً، في الصالون حتى تصدّرته

مثل ديكتاتورٍ بعد انقلابٍ عسكري. بطريقة آلية، فتح الشيء ليقع وجهاً لوجه على ألفي، العدد التقريبي، سدادة زجاج شمبانيا. وفوقها بطاقة كُتِبَ عليها:

السيّد هونوريه دلبين، المتوفّى في 12 تشرين الأوّل، أوصى لك بمجموعته من السدادات.

هذه المرّة، لن يسعه أن يُشفى من ذلك. حاول أن يكون رجلاً ككلّ الناس، ولكن لا يسعه فعل شيء، أُرسِلَت إليه سدادات. كان ثمّة على الدوام موتى يتألّمون بما يكفي لإفساد حياتنا؛ بشعورهم بالوحدة المفرطة، كانوا يسرّعون حركة الأحياء. موهناً بجسٍّ للخصيتين، منتهياً بمجموعةٍ مسلّمة من قبل ساعي البريد، كان عليه أن ينتهي إلى حلٍّ مع تلك الحياة المتقدّمة أمام مرآة. تلك الحياة التي تتّخذ من ماضيه نموذجاً. كيف استطاع أن يعرف، في تلك اللحظة، أنّ عليه أن يتشبّث بها لكي يعرف عاقبتها الغريبة؟ ارتبكت حركاته، وهرع إلى المترو حيث موعده مع انتحاره الفاشل، وتبعاً لذلك، بداية كتابنا.

6

بعد ستّة أشهر من ذلك، عاد بطلنا الكاذب من الولايات المتّحدة، البلد العظيم الذي يعرفه قليلاً بقدر قلّة معرفته بالسعادة. حاولت حارسة المبنى أن توضِّب الهدايا، وسعى جارٌ سكّير (ثرثري) لاستبقائه في بيته. ما إن جلس في بيته، توقّف لكي يعود إلى الوراء. طيلة تلك الليلة، لم ينم هكتور. بعد ستّة أشهر من النقاهة، اضطرّ لأن يتشجّع ليستعيد حياةً طبيعية. ذلك هو التعبير الذي استخدمه الطبيب المسمرّ: «الحياة الطبيعية، يا صديقي، أنت تستعيد الحياة الطبيعية». كان لا بدّ على الأقل من محاولة الانتحار لكي يُنادى «صديقي» من قِبَل طبيبٍ. الحياة الطبيعية، الحياة من دون جمع. تلك المرّة، كان قد شفي. لم يسعه حقّاً أن يقول كيف، ولا في أيّ لحظةٍ بالضبط، ولكن خلال كل ذلك الوقت في العيادة، غسل ماضيه. شعر بأن جزئيات رجلٍ آخر قد نجحت في النزول بمظلّةٍ عليه. استدعاه أخوه لكي يعرف ما كان ينوي فعله. سمح له بالحصول على إجازة طويلة، ولكن، الآن وقد عاد للظهور، كان عليه أن يسأله متى سيستأنف العمل. لم يجرؤ

على الاعتراف بأنّ السبب الحقيقي لضغطٍ كهذا هو أنّه يشتاق له! من دونه، كانت الشركة قد استعادت مسلكاً عديم الشفقة، دالاس. طلب هكتور أسبوعاً إضافياً من الإجازة لسببٍ غريب: لم يكن له أبداً رأس شخصٍ غادر إلى الولايات المتحدة. وكان تولّي وظيفته الزمنية، في أيامنا، أمراً جوهرياً. زد على ذلك أنّ الذين يذهبون إليها يقولون **ستايت *(states)***، وكلّما كانت الإقامة طويلة، كلّما مطّوا حرف الألف، لإظهار نوعٍ من الألفة التي لا يمكننا، نحن الآخرون، فهمها... ستاااااااايت ***(staaaaaaaates)***. هذه الألفة التي ينبغي تفسيرها كدليل. احتاج إلى أسبوعٍ لكي يتعلّم كلّ شيء عن الولايات المتّحدة. أسبوعٌ للعودة إلى العمل، معافى وبعذرٍ يسدُّ على الأشهر الستّة غير المريح من النقاهة.

في مكتبة فرانسوا ميتران العامّة، سأل عن قسم الولايات المتّحدة ليصل أخيراً إلى قاعة الجغرافيا. استلذّ هكتور بتمرير إصبعه على جلد الكتب، تذكّر مجموعة قديمة دون أدنى اختلاج. كيف أمكنه أن يكون غبيّاً إلى هذه الدرجة؟ حرِص على ألاّ يتصرّف بكثيرٍ من الخفّة لكي يحافظ على شيءٍ من الوقار. أخيراً، أصبح أمام أطلس الولايات المتّحدة. مدّ ذراعه، فاصطدمت بذراعٍ أخرى؛ وكان لا بدّ من تمرير يده على تلك الذراع الأخرى ليتبيّن أنّها عيّنة بشرية من أصلٍ أنثوي. تنافس مع امرأةٍ على نفس الكتاب. مهذّبةً، اعتذرت أوّلاً. لطيفاً، ألحّ على أن تأخذ هي الكتاب. أسفر اقتران

التهذيب باللطف عن القرار التالي: سنتقاسم الكتاب، سنجلس معاً، وسنحاول ألاّ نتنازع على تقليب صفحاته. في الطريق إلى الطاولة، ودون أن يعرف تماماً السبب، فكّر هكتور من جديد بالقول الكرواتي المأثور الذي يقول إنّ المرء يلتقي غالباً بنساء حياته أمام كتبٍ.

بداهة، كان يوجد هناك كتاب.

«سألت: أَبهذا القدر تهتمّ بالولايات المتّحدة؟

- نعم، أنا عائدٌ منها.

- آه حسناً، كنتَ في **الولاياااات؟**

- نعم، وأشعر بأنّكِ أنتِ أيضاً».

خاضا في النقاط المشتركة والمصادفات. ولتدعيم هذه الصدفة الجميلة، أدلى كلٌّ بتعليقه، ملقياً في الوقت ذاته نظرةً على الأطلس. نعم، بوسطن، إنّها رائعة، إنّها ضاحية عدد سكانها 8322765 نسمة. وكنساس، إنّها طريقة مجنونة أن يمرّ فيها هكذا خط الزوال بلوويش. باختصار، كانا منهمكين في ولعٍ أفّاقٍ، بالكذب. وسيكفي أن يكون أحدهما قد ذهب حقّاً إلى الولايات المتّحدة ليتأكّد بنفسه من احتيال الآخر. حينما يكذب شخصان على بعضهما حول نفس الموضوع، هناك القليل من الفرص لينكشفا. وحينذاك ارتكب هكتور خطأً قاتلاً بسؤاله شريكته في الأطلس عن سبب اهتمامها الزائد بالولايات الأمريكية. شرحت له بأنّها عالمة اجتماع. هذه كلمة أربكته

كثيراً بحيث قضى وقتاً قبل أن يدرك أنّها قد أعادت إليه سؤاله. كان الموقف أشبه بلعب كرة الطاولة. كان تائهاً، لا يدري ماذا يقول؛ وكغالب الأحيان، حينما لا يدري المرء ماذا يقول، يقول الحقيقة:

«أردتُ إبهامكِ بأنني قد ذهبتُ إلى هناك».

اعتقد بأنّها ستعتبره مجنوناً، ولكنّها اعتبرت ذلك التصادف جنوناً. هي أيضاً كانت تريد إبهامه! شغوفاً، سأل هكتور عن اسم الآنسة، وفجأة، كان أمام بريجيت. وبطريقة غريبة تماماً، كان عليه أن يعرف اسمها لكي يراها، فعلاً إنّها، جميلةٌ. لم يكن ينظر قطّ إلى مجهولٍ، وكان اسم امرأة يُطمئِنه.

قبل أن يُرعبه تماماً.

بريجيت، كان اسماً مبشّراً؛ غريباً بعض الشيء، ولكن لم لا؟ لسوء الحظ، ليس لنا أن نختار أسماء الأشخاص الذين نلتقي بهم. كانت من نوع النساء اللواتي يثرن الرغبة في شرب الشاي. ذلك المساء الأوّل، ستفكّر ثانية في هكتور. اتّفقا على أن يلتقيا في اليوم التالي. لم تكن من عادة بريجيت أن تلتقي أناساً في الشارع، ولا في المكتبات العامّة، ولا حتى بذات النوايا أمام كتابٍ. سوف تُصاب بالأرق على الأرجح وربّما ستستيقظ لمرّاتٍ تزيد على أحداث حياتها. لم نكن على دراية جيّدة بأهل بريجيت. بالتأكيد، لم تكن تعِسةٍ، كان والداها متقاعدين رائعين، وكان إخوتها وأخواتها أخوةً وأخوات رائعين. وكانت خاصّة ذات ربلتين فاخرتين.

*

علينا أن نعرف أمراً، في جميع الأحوال. كان سرٌّ، أشبه بالسحر، يحيط ببريجيت. حينما كانت طفلة، نامت وسط العشب، وذَبُل العشب من ذلك الحين. استغرقت في أحلام اليقظة، واستهوت عينا الطفلة الصغيرة الريح، والمستقبل، وبعض الذكريات المبهمة. كانت أفكارها، يوم ذاك، لطيفة كتعاقب اليقظة والنوم. فأحسنت فراشةٌ صنعاً بأن حطّتعلى أنفها، وتأمّلت بريجيت، في روعة حركاتها. ظلّت طويلاً على أنفها، طويلاً وبرزانة. رأت بريجيت عالم ما وراء الفراشة، كان جناحاها شبه الشفيفين قد شكّلا موشوراً سحريّاً. حينما استعادت طيرانها، تبعتها بريجيت بنظرتها لأطول وقتٍ ممكن. اضطُرِبت لوقتٍ طويلٍ جدّاً بتلك اللحظة التي شاهدت فيها العالم عبر مَرشَح فراشةٍ. خشيت أن يبدو لها كلّ شيء قبيحاً بعد ذلك. ومع ذلك، استمدّت من تلك اللحظة السحرية يقيناً غريباً. اليقين بأنّها كانت موهوبة بقدرةٍ نادرة؛ تنمو في داخلها قدرةٌ فريدة ستنكشِف ذات يوم.

*

في اليوم التالي، كانا لطيفين للغاية في موعدهما. كان على الرجل أن يتكلّم، والرجل كان هكتور. ولأنّها كانت قد ذكرت علم الاجتماع، سأل: ولكن لماذا **علم الاجتماع؟** أرادت أن تبتسم، ولكن لكونه غير مرتاحٍ تماماً (كان يلزمه بالتأكيد ستّة وعشرين يوماً لكي يرتاح)، شرحت بأنّها كانت تدرس، في إطار إعداد أطروحتها للدكتوراه، **الوحدة في الوسط المديني**. ردّد هكتور، متظاهراً بالحيرة، الوحدة في

الوسط المديني. نعم، كان الأمر يتعلّق بقضاء ستّة أشهر في باريس دون أيّ علاقة اجتماعية. ولذلك، كانت قد أخبرت أسرتها وأصدقاءها القليلين بأنّها سافرت إلى الولايات المتّحدة. من الضفّة الأخرى للمحيط، سوف لن يحاولوا إزعاجها.

أوضحت: «لم أتكلّم منذ ستّة أشهر، ولذلك كان لساني ثقيلاً البارحة.

ردّ هكتور: - آه حسنٌ».

بعد هذا الجواب الحيوي، قرّرا العمل معاً. كان على المسافرين الزائفين إلى **الولاياااات** أن يتعاونا. جلسا في أرائك ضخمة لكي يتفرّسا في بعضهما. ارتبطت معرفتهما بالولايات المتّحدة برغبتهما في الالتقاء المتجدّد ببعضهما. بعد بضعة أيام، اضطرّا لخلق ولاياتٍ جديدة.

للمرّة الأولى، انشغل بال هكتور بمعرفة ما إذا كان بوسعه أن يثير إعجاب أحد. نظر إلى صورته مليّاً في المرآة، واشترى لنفسه ربطة عنق. اضطرّ لأن يتحدّث عن ذلك إلى مارسيل لأنّه كان أخصّائياً في النساء، أقلّه في الاختصاص الشَعري. لم يكن مارسيل قط فرِحاً بكونه صديق أحدٍ كما في هذه المرة. حتى أنّه، في الحانة التي التقيا فيها، طلب شراباً كحوليّاً. كان المكان يذكّر بحماماتٍ تركية شاسعة. كان مارسيل يتحدّث بصوتٍ مرتفع بعض الشيء، ويومئ بكلّ الاتجاهات، وكانت تلك طريقته لِلاشتراك في غراميات هكتور. كان يُعنى بالمهمّة عناية خاصّة، وتحت ميزاته كمغامرٍ سكّير، وتحت ميزاته

كرياضيٍّ روسي، وتحت كلّ ميزاته، كانت تُخرَج من تحت الغبار ميزة رجلٍ عاطفيّ. كان حتى مجرّد ذكر إمكانية الدخول المحتَمَل لامرأةٍ إلى حياة صديقه يجعل الدموع تغرغر في عيونه. بينما كان يُفتَرض أنّه قد طُمئِنَ ونُصِحَ، كان على هكتور أن يرفع من روحه المعنوية: كانت لا تزال الأمور العاطفية تملأ قلب مارسيل، وترويه كبتلات الورود.

أثناء الخروج من المكتبة، شكّل هكتور وبريجيت ثنائياً. دون أن يعلما كثيراً ما يشاء القدر لهما، وقفا جنباً إلى جنب في مواجهة الحياة. كانت تلك اللحظات التي تسبق الحبّ حيث يظهر المرء وسط براءة البديهيات. تحدّث هكتور عن ماضيه كهاوٍ، واعترفت بريجيت بأن حب الشباب قد غطى وجهها إلى عمر السابعة عشرة والنصف، وأخيراً ضحكا ببلاهة مثل كلّ الذين رأيناهم يضحكون ببلاهة في الحدائق العامّة؛ إنّها واحدة من اللحظات النادرة التي تكون فيها الحماقة ميزةً. إذاً، كانت حياة جديدة تنفتح، وبغية الاحتفاء بها في ألقٍ من الشاعريّة، كان هناك في تلك اللحظة سِحر صحوٍ مفاجئٍ وسط الغيوم بعدما كانت السماء مكفهرّة حانقة بالتأكيد. شعر هكتور، وهو يراقب بريجيت وحسب، بالطمأنينة. شعر بنفسه واضحاً مثل سيارة ليموزين تخرج من المطارات. كانت بريجيت، الغارقة عادةً في حشمتها، تستسلم، دون أن تعرف بعد الطاقة الجنسية المسترخية بإسفافٍ فيها.

قدرة جنسية، كان التعبير مثيراً للإغراء. دخلا حقيقة ضمن الأمل المباشر للشبقية. وقفت بريجيت، التي لم تُختَرْ قطّ في أيّ مكان، على مقدّمة المسرح. آخر مرّة رأى هكتور فيها امرأة عارية، كان بطبيعة الحال على شاشة تلفازٍ. استيقظت فكرة الجنس كسمكةٍ متوثّبةٍ. منذ الخروج من المكتبة، قلّما تكلّم العاشقان المستقبليان. كانت شقّة بريجيت تقع في الطابق الأخير من مبنى في وسط المدينة، والصخب المتصاعد من الشارع يهدهد الغرفة، وكان الشركاء في البناية قد قرّروا حديثاً تركيب مصعدٍ. انسلاّ ليمارسا الجنس في الحال. تظاهر هكتور بأنّه المعتاد على أشياء من هذا القبيل، ساحباً الستارة جزئياً؛ طبعاً، حلم بأن يكون وسط العتمة المطلقة. خشي ألاّ يكون جسداهما بمستوى لقائهما. بقي أمام تلك النافذة، لبرهةٍ، برهة كانت تغدو طويلة جدّاً، برهة لم تعد في الحقيقة برهةً وإنّما فاتحة أبدية. وراءه، كان هناك جسدُ امرأةٍ لم يعد يخفيه أيّ شيء. سمع هكتور ضجيج الألبسة النسائية المتهاوية على الأرض، ذلك الضجيج الخفيف الذي يسترعي آذان الرجال. كانت بريجيت عارية تحت الملاءة؛ رفع هكتور الملاءة. أمام جمال تلك اللحظة، انهار وقد بقي مستقيماً تماماً؛ انزلق عموده الفقري نحو قدميه. أمام الهيجان، بات هكتور جسداً بلا قاعدة. طرح جسده على جسدها، ووضع شفتيه على شفتيها. وحينها تسيّد الصمت. صمتٌ من بداية العمليات، شعر كلٌّ منهما بأنّه يمارس الحبّ في كنيسة.

بعد دقائق من ذلك، بوغِت هكتور بقلق المسرّات المفاجئة. بريجيت، كذلك، لم تشعر بحبورها؛ استجمعت كلّ قواها. بعد لهاثٍ منسّقٍ طويل. مارسا الحبّ مرّة أخرى. مرّات ومرّات عديدة. هبط الليل، ارتدى هكتور ثيابه؛ أراد أن يمشي تحت النجوم. قبّلته بريجيت عند مدخل الدرج. بالكاد أصبح في الخارج حتى فكّر مرّة أخرى بكتفي تلك المرأة التي تحبّ بجنون، تلك الرقبة في ما بعد الظهيرة. فأخذ يترنّح؛ أنهك الشعور ساقيه. جال في المدينة لبعض الوقت قبل الوصول إلى بيته، تنشّط ثملاً بسعادته. فكّر من جديد بجسد بريجيت، رغِبَ في أن يراها تحت عدسةٍ مكبِّرة، أن يرفع تنوّرتها في المصاعد، وأن ينسلّ إلى ما بين فخذيها. جسد الآخر، جسد المرأة، كيف أقول، شعر بأنّه قد أصبح فجأةً طاهراً. بجسد الآخر، يتحسّن المرء، بجسد الآخر يغدو المرء بريئاً.

انتهت ليلة تسكّع هكتور بالمكتب. وصل شقيقه في الوقت الذي يصل فيه كلّ يوم. اندهش لرؤيته في تلك الساعة المبكرة جدّاً. كان شديد الإرهاق من الانتظار، وقد سار على قدميه طيلة الليل! أراد أن يلتقي أخاه ليخبره بخبرٍ عظيم. زواجه، نعم، سوف يتزوّج بريجيت! ذرع أرنست المكتب جيئة وذهاباً، كانت تلك على الأقلّ المسافة الضرورية ليعبّر عن غليانه. أخرج مفكّرته للعناوين لكي يُعلِم الجميع؛ ألو، هل أنت مستعدّ لتلقّي خبر؟ بعد ساعتين، وهو يلعن نفسه لعدم معرفته المزيد من الناس، شرع بجولةٍ أخرى في مفكّرته وأذاع

الخبر المذهل. في شركة Gilbert Associate and Co، أُقيم حفل كوكتيل احتفالاً بالحدث. كان هناك عرضٌ للمقبلاّت ولم يتعثّر هكتور أمام عيدان المقبّلات. دُعيَ مارسيل بالطبع (لم تستطع لورانس أن تتفرّغ بسبب تمرينٍ أساسيّ لمباراةٍ مهمة). في الساعة السادسة وصلت الشمبانيا بطريقة بهيجة، وتعانق الحضور كثيراً. تصاعد هتافٌ وصيحاتُ فرحٍ جميلة احتفاءً بهكتور. أخيراً، سألوه عن اسم سعيدة الحظّ. وفي اللحظة المحدّدة التي نطق فيها باسمها «بريجيت» تذكّر بأنّه لم يُخبِر بعد سعيدة الحظّ بنواياه.

*

تعذّبت بريجيت طيلة النهار بتناقضٍ غريب: خلال انغماسها التامّ في العزلة المدينية، التقت برجلٍ حياتها، تردّدت في تغيير موضوع أطروحتها الاجتماعية، ومن ثمّ فضّلت، معتبرةً أنّ السعادة أنانية، الاحتفاظ بهذا الاكتشاف الجوهري: لملاقاة الحبّ، يجب البحث عن العزلة.

*

سها دماغ هكتور الذائب تماماً في النكهة البريجيتية عن أنّ إحدى خصائص الزواج: إنه قران شخصين. في النهاية، لم يكن الأمر مهمّاً جداً، ألم يكن الأمر يتعلّق ببديهة؟ لطالما استطاع أن ينسى إعلان نواياها حينما كانت واضحة. كان ذلك واقعاً، سيتزوّجان. وفي ذات المساء الذي التقيا فيه لليلتهما الثانية، نوقِش الموضوع ببساطة. نتزوّج؟ نعم، نتزوّج. يا لهما

من بسيطين هكتور هذا وبريجيت هذه. وكأنّهما بطلان سويسريان. قوّت المتعة الجنسية كلّ مظاهر هيمنتها البدائية. كانت ربلتا بريجيت تندهشان بنفسيهما من رشاقتهما الأولمبية، واكتشف هكتور بأنّه مولعٌ بعضعضة شحمة الأذن. تحت الملاءات، أصبح مجهولاً. وتمرّن على أن يقول في نفسه **نعم** بكلّ اللغات. في ظهيرة اليوم التالي، ستكتشف بريجيت أخطاءه، وسيكون هذا ممتعاً.

يعاني العشّاق دائماً من إحساسين يلامسان الهستيريا اللذيذة. قبل كلّ شيء، يجدون كلّ الصفات في الحياة، فجأة تصنع الرتابة اليومية نظاماً، والاهتمامات المرهقة لحياة كلّ عازبٍ جديرٍ بالاحترام اختفت وسط سلاسةٍ جديدة. تبدو لهم الحياة جميلة بنفس انعدام الوضوح الذي سيشعرون به في ما بعد، مفتتنين بجمال طفلهم القبيح. الإحساس الثاني هو نشوة كبيرة. كان هكتور على سبيل المثال يتلذّذ بعبارة «زوجتي». استخدمها بشتّى الطرق. يكفي أن يُسأل في الشارع عن الوقت لكي يجيب «ليست لديّ ساعة، لكن لو كانت زوجتي هنا. . . أو، لدى زوجتي ساعة جميلة. . .». كان يرفع بريجيت إلى مصاف مدام كولومبو، ويحشر عبارة «زوجتي» في كلّ الجُمَل ببساطة محيّرة، بل وكان بوسعه أن يختلق لها مكانة عالمية. يبقى التزلّج الحرّ الأميركي، قمّة الابتهاج بلا ريب، لم يكن هناك ما هو أكثر لباقة من عبارة *my wife* المعروفة كثيراً. قريباً، سيقدم هكتور بالتأكيد على ترداد عبارة *you fuck my*

wife الأسطورية؛ سعيداً كما كان، سوف لن يتوانى عن اعتبار نفسه على الأقلّ روبير دي نيرو.

ولكن قبل كلّ شيء، عليه أن يلتقي شقيق بريجيت. لطالما لعب دور صاحب القرار في العائلة. كان أشبه بـ«عرّاب»، تُقبّل يداه نادراً. حتى والد بريجيت لم يكن يتّخذ أيّ قرارٍ دون الرجوع فيه مسبقاً إلى ابنه. لم يكن لجيرار الكثير من الخلايا العصبية، وإنّما فخذان قويان جداً. شارك في سباق باريس-روبيه الشهير ولكن، للأسف، سقط على حصاةٍ كسرت جمجمته. إضافة إلى المنشّطات في السنوات السابقة، انتهى ذلك السقوط إلى تحويله إلى عاجزٍ، حتى أنّ بعض ألسنة السوء كانت تسمّيه «**الفاشل**». كان هناك جورٌ في تلك التسمية، وسرعان ما نسي الجاحدون العهد المجيد لجيرار حينما ارتقى منصّة ورزازات-الدار البيضاء. كان من السهل جدّاً توجيه النقد في ما بعد. ظلّت عائلة بريجيت تركّز على ذلك الفوز. للأسف لم تُلتَقط صورة تخلّد تلك المأثرة. فقط صورة فوتوغرافية مؤطّرة بمفخر على خزانة الوالدين تشهد على الانتصار. تلك الصورة التي يظهر فيها جيرار محاطاً بشبابٍ هزيلين بعض الشيء ولكنّهم محبّون للقتال بطبيعة الحال، وملوّحاً بكأسٍ في الهواء والغبار (كانت ألسنة السوء التي تسمّيه «الفاشل» تزعم بأنّ هذه الصورة التُقِطَت في غرفة تصويرٍ في بوبيني. إنها مجرّد افتراءات). إن تلك الصورة البطولية هي التي جعلت من جيرار زعيم العائلة بلا منازع. بعبارات أخرى،

لكي يحصل هكتور رسمياً على امرأة حياته، كان عليه أن يدرس بجدٍّ ونشاط حكايته عن الدرّاجة.

حتماً لم يتخلّ الحظّ عنه طالما كان يحظى بامتياز أنّ من بين معارفه، البعيدين كفايةً بالتأكيد، ابن «روبير شابات». خلال بضعة لقاءات، تحوّل إلى خبيرٍ كبير في سباق الدراجات، وظلّ مصدوماً بأن رأى كيف أنّ «لوران فينيون» ترك سباق 1989 يفلت منه لصالح «غريك لوموند» بفارق بضع ثوانٍ زهيدة. كانت بريجيت فخورة بزوجها المستقبليّ الرياضي، ولم تبالِ بالوجهة التي كانت المباراة تأخذها في لقاء القمّة بين رَجُليْ حياتها. كان هكتور في أبهى حلّة، في عامه الواحد والثلاثين (ولقلّة ثقته بنفسه، شكّ حتى في هذا الرقم)؛ وكانت ربطة العنق الصفراء خاصته تشحب. لم يتبقّ له سوى إيجاد وضعية الاستقبال. من المعروف تماماً عند كلّ المتبارين؛ كلّ شيء يكمن في النظرة الأولى؛ لا بدّ من إجادة أخذ وضعية الارتقاء حتى قبل صافرة الانطلاق. حينما كانت بريجيت تعدّ في المطبخ الطماطم المحشية، الطبق المفضّل لدى شقيقها، جلس هكتور على الأريكة، نهض، جلس بالقرب من النافذة، حاول أن يدخّن، كلاّ، هذا لا يناسب رياضياً، وضع يداً على الطاولة ليبدو لا مبالياً، تظاهر بالحيرة، أراد صراحةً أن يتغيّب، الخ. كان يبحث، متعرقاً، عن الوضعية المثالية حينما، فجأةً، ودون أن يعرف كيف حضرت، عبرت فكرةٌ ذهنه. فكرة رائعة، فكرة **وضع اليدين خلف الظهر**.

أُطلِقَت الصفّارة.

دخل جيرار ووجد مَنْ كان يمثّل الدور التشريفي للصهر. ولكونها مباشرة، كانت المفاجأة محسوسة في نظرته. ضربة بارعة من هكتور. أمرٌ غريبٌ جدّاً أن يُستقبَل من قِبَل رجلٍ يضع يديه خلف ظهره. كان أشبه بقهرمانٍ؛ تعرض فكرة احترام واعتبار نفسها. تصرّفٌ مؤثّرٌ للغاية، جذعه إلى الأمام مثل الجنود في لعبة حربية، لم يكن المرء يعرف كيف يتصرّف أمام يدين خلف الظهر. ولكن صاحبنا جيرار لم يكن من النوع الذي يرتبك بشيءٍ آخر غير الصدى العابر لمفاجأة. تقدّم نحو هكتور، متثاقل الخطى، خُطى رجلٍ سبق وأن ارتقى منصّة سباق ورزازات-الدار البيضاء. من جديد، وككلّ اللحظات العظيمة في حياته، شعر بذلك اليباب، وجفّ حلقه؛ إنّه اختبارٌ لما هو أسطوري في تلك المباراة. ظلّت بريجيت، والطماطم المحشية، صامتة. فعل هكتور، ويداه خلف ظهره، كلّ شيء لئلاّ تكون له هيئة متحجّرة. حاول أن يُفرِج عن ابتسامةٍ لم تكن في النهاية سوى رجفة وجنةٍ آيلة للزوال.

وحينذاك حدث الأمر التالي.

لم يعتد هكتور على أن يضع يديه خلف ظهره. لم يوقَف قط من قبل شرطيين ولم يمارس الحبّ قط مع سيّدة «دونجون»[9]. حينها اضطراراً، استفادت يداه خلف ظهره من إطلالتها الجديدة وتجمّدتا ليكتسب زمناً من الهيمنة العاصفة

(9) دونجون: برج القلعة حيث تتحصّن فيه النسوة أثناء الحصار. (المترجم)

لليدين أمام الساقين. بعبارة أخرى، وهذا خلال ما يقارب ثانيتين تساويان الأبدية في هذه الحالة، ظلّت اليد اليمنى لجيرار معلّقة في العزلة. تساءلت بريجيت: ولكن لِمَ لا يمدّ يده إليه؟ كيف أمكنها أن تعرف أنّ هكتور هو ضحية لانتقام من **اليدين خلف الظهر**؟ الانتقام الذي نجح في قهره بذكاءٍ كبير وأخيراً، انطلقت يده اليمنى. فقط، ظهرت بسرعة كبيرة من خلف الظهر (سرعة جنونية) بحيث لم تنجح في التوقّف عند مستوى يد جيرار، واندفعت مباشرةً نحو أنفه، حيث تحطّمت بعنف.

انقلب جيرار إلى الوراء، شبيهاً بعض الشيء بما آل إليه برج بيزا خلال مائة واثنين وخمسين عاماً، وأربعة عشر يوماً واثنتي عشرة دقيقة.

لوهلةٍ، ظنّت بريجيت أن حركته كانت متعمّدة. كيف استطاع هكتور أن يشرح لا إرادية فعله؟ يمكننا إيجاد عذر لرعونة يدٍ تطال مزهرية، ولكن كيف يمكن إيجاد عذر يدٍ تندفع لتطال وجهٍ؟ أكان عليه الاعتراف بالفوضى الفظّة لحركة يديه؟ نهض جيرار بشراسة، ولكنّ شدّة الصدمة منعته من أن يتصرّف؛ في أعماقه، كان يحترم حركة هكتور. وإذ لم يدرك بأنّ الأمر كان يتعلّق بحادثٍ فظيع، اعتبر أنّ ذلك الرجل فحلٌ ويستحقّ الزواج حالاً بأخته. كان هكتور يتصبّب آخر قطرات عرقه. تحسّس جيرار وجهه. لم يكن أنفه مكسوراً. فقط قليلٌ

من الدم سال متعثّراً، ولكنّه كان دماً نبيلاً؛ كان دم جيرار يتخثّر دائماً بلطف.

أثناء العشاء، لم ينقض هكتور رواية جيرار. ظلّ مقتنعاً بتعمّد الحركة (التحليل الذي سوف يسبّب له عدداً كبيراً من الخِدَع في الأشهر المقبلة لأنّه سيسدّد، منهجياً، لكمةً لكلّ شخصٍ جديدٍ يلتقيه). شرحت بريجيت، سرّاً، لهكتور بأنّ شقيقها كان كذلك، كان يحلّل الأمور غالباً بطريقة غريبة، بل مختلّة. عاد جيرار إلى بيته، واستفاد من القمر الكامل المنير لكي يتنزّه على طول الأرصفة. جعلته اللكمة التي تلقّاها على كل وجهه رومانسياً. تذكّر المشهد من جديد، ارتعد تأثّراً وفخراً بفكرة أنّ أخته تزوّجت زعيماً مثل هكتور. دفعت حركة تلك اليد السهرة إلى الحقل المختار بدقّة للأشياء التي لا تُنسى. دخل ذلك اللقاء الجميل في تاريخه الشخصيّ ليستقرّ على الضدّ تماماً من الذكرى التي لا تُمحى لمنصّة ورزازات- الدار البيضاء.

في تلك الليلة، جرّب هكتور أن يكون مُرسَلاً.

7

عن طريق جيرار، تبنّى والدا بريجيت قلباً وقالباً قضية هكتور. من الجهة الأخرى، لن تكون الأمور سوى محض شكلية، شريطة أن تحبّ بريجيت احساء الأمومي. حلم هكتور بأن يرى في عينيّ والديه ما كان يسمّيه **تقديراً عاطفياً**. أراد أن يُفهَم على أنّه أبٌ مستقبليّ للعائلة، رجلٌ قادرٌ على القيام بعطلاتٍ مشرّفة في الصيف مع الأخذ بالحسبان أوقات فراغ كلّ فردٍ من العائلة. كان هكتور يضطرب؛ إنّها المرّة الأولى التي يأتي فيها مع فتاة. أمِل من هذا التطوّر الجديد بريقاً في عيني والديه، خروجاً عن روتين حنانهما الكئيب. ومع أنه كان يحلم بأن يراه والده رجلاً، أراد بشكلٍ خاصّ ألاّ يطيل والده النظر إليه. اتّصل هاتفيّاً عشية زيارته الاعتيادية. خشيت أمّه من أن يلغي زيارته، إذ لم يكن يتّصل قطّ، وكان الموعد الأسبوعي ثابتاً كتعاقب الأيام. «ماما، غداً سآتي برفقة... سأكون مع صديقتي...». أُحيطَت هذه الجملة بأصداء ناجمة عن دهشة كأنها من صنع النجوم السماوية. وكأنّ الآلاف من الرجال والآلاف من النساء قد حلّوا فجأةً في صالون الوالدين. طنّت

أذنا برنار: «هل فهمت، سيأتي برفقة. . .» كانت بريجيت، في مخيّلة ميراي، كونتيسة متوّجة في واحدٍ من تلك البلدان الأجنبية الحارّة جدّاً؛ كانت كلّ شيء ولا شيء في آنٍ واحد. سرعان ما دبّ القلق في المطبخ؛ أيّ حساء؟ كان الروتين ينحرف؛ والأسوأ، أصبح الروتين طائرة وابتعدت عن بالغيوم. كانت ميراي متعرّقة. ولا سيما أنّ الأب كان يجب ألاّ يجول في المطبخ، فهو يُربك، والهيجان يتصاعد، كان يربك منذ الأبد، ما كان عليها قط أن تتزوّجه، لم يكن يصلح لشيء! والد هكتور، البعيد تماماً عن الانبهار، والرجل اللطيف جداً، سعى إلى طمأنتها، «سيكون حساؤك إلهياً، لا تقلقي» وكانت تأمل، باكية: «صحيح، أتعتقد بأنّها ستحبّ حسائي؟».

مساء اليوم التالي

أفرجت بريجيت عن بضع ابتسامات متتالية. ومن خلال هذه الابتسامات، عرفوا أنّها سوف تحبّ الحساء. وكلّ ما بقي كان مجاملات. قُضي على مواضيع خاطئة للحديث، الكلّ مضبوط بإيقاع الساعة الستالينية. كان لا بدّ من الجلوس والاحتساء. كان الحساء رائعاً، رائعاً جدّاً، ساحراً، مذهلاً، طلبت بريجيت المزيد منه؛ تساءلت ميراي، متمالكة عبراتها، مَنْ عساها تكون هذه الفتاة الرائعة جدّاً؟ بعد العشاء، أي بعد اثنتي عشرة دقيقة من وصولهم، دار الحديث بين قسمين: النساء من جهة، والرجال من جهة أخرى. كان ذلك من الزمن الغابر البالي، تكتكة الساعة. بدأ هكتور حديثاً مقتضباً عن

موضوعٍ صغير: الحياة. سأله والده عن مشاريعه عموماً، ومشاريعه مع هذه الفتاة خصوصاً. بكى، سامحوه، ولكن فعلاً للمرّة الأولى يتحدّث بهذا الشمول مع والده. من جهتها، كتبت بريجيت قائمة محتويات الحساء، بينما كانت ميراي تشارف على الانتحار اغتباطاً.

لم يعهد هكتور قطّ والديه يتصرّفان بتلك الطريقة. علاوة على أنه تقدير عاطفي، حصل على خفقان القزحية ذاك؛ خفقانٌ حلم به طيلة أيام طفولته السالفة. بدا له بأنّه أخيراً وسط عائلة طبيعية. والدان سعيدان وأولادٌ سعداء. يتناولون الغداء أيام الآحاد أمام التلفاز. كان لأرنست زوجة، يخونها بالتأكيد مع سمراءٍ من «مديرية النزاعات الاجتماعية»، ولكن لم يكن ذلك يُرى في الصور العائلية. كانت الصور ترسم مظهراً جميلاً. إذا ما أصبحنا ذات يوم مشهورين، سوف يضجر مصوّرو الباباراتزي بشدّة مع هكذا سعادة. لدينا أفضل صديق، لدينا نسيبٌ يهوى لكم الأفواه. لم يعد ينقصنا سوى موعد، وسيكون هذا الموعد في الرابع عشر من حزيران. موعدُ زواجٍ لإتمام مهرجان ماء الورد ذاك. لحسن الحظّ أنّ كلّ المباهج تنحرف عن القواعد، يكفي فقط الانتظار. في الليل، عاد هكتور وبريجيت من هناك. كانت تلك الوجهة هي التي لم تنقل السعادة فيها أيّ كلمة في حقيبتها.

كان الرابع عشر من حزيران يبدو كقطرتي ماء في الثاني

عشر من حزيران. للثاني عشر من حزيران دائماً ذلك المظهر المختال، ذلك المرح الشبيه بالأقراط. تعارف أرنست وجيرار بلباقة؛ بين الأنسباء، لا بدّ من التعاون. كان مارسيل هو الآخر أخاً، فهو لم يأكل بلح البحر هكذا، لئلاّ يكون فيما بعد خرج العائلة؛ كان يمسك ببطنه، وكأنّه متخمٌ بالسعادة. تذكّر كيف أنّه رافق هكتور الصغير أثناء علاجه، وها هو الآن، في غاية الجمال، ومقبلٌ على الزواج. يعود الفضل له بعض الشيء في كلّ هذا، ولم يأتِ أحدٌ لتهنئته. نحن، كنّا نعرف مارسيل. من جهتها، لورانس كان لديها معارف عديدة، وكان بوسع المرء الاعتقاد بأنّها تعرف المكان جيّداً لأنّها مغرمة بأن تعرض لمعارفها أمكنة لم تكن معروفة (أمكنة خلف أشجار الحديقة، في ظلّ حبّ المتزوجين). كان جميع المدعوين قد تجمّعوا في الحديقة حيث، تحت قرص الشمس، سوف يشربون نخب الصحّة الأبدية لهذا الحبّ. لم يسعنا منع الساخطين من شرب الأنخاب أيضاً. أُقيم حفل الكوكتيل قبل الاحتفال، وأراد هكتور وبريجيت أن يفرّا تبادلا إلـ «نعم». كانا قد قرّرا السفر إلى الولايات المتّحدة لقضاء شهر العسل. وصل العمدة أخيراً مع وشاحه الثلاثيّ الألوان إلى حيث كنّا، لفرط سعادتنا، قد نسينا موقعنا الجغرافي. اتّشحت بريجيت بثوبها الأبيض. ظلّ هكتور مركزاً انتباهه. عكّر أمرٌ ذهنه: عقد الزواج. إنّها آخر لحظة، الأخيرة، عليه أن يكون خالياً من العيوب فيها. انتظر تلك اللحظة ليرتاح أخيراً، أرعبه الخوف من أن يرتعش. كان يخشى كثيراً ألاّ يكون بمستوى زوجته المستقبلية.

القسم الثاني

نمطٌ من الحياة الزوجية

1

لأنّهما يعرفان كلّ شيء عن الولايات المتّحدة، أمضى العاشقان الكثير من الوقت في غرف الفندق. تعاطفا مع موظّفي خدمة الغرف. في الطائرة، كان يمكن لكلّ مسافرٍ أن يشاهد الفيلم الذي يريده بفضل شاشةٍ شخصية. وعند العودة إلى فرنسا، أقاما في شقّة واسعة من غرفتين. بفضل مساعدات مارسيل وجيرار المتعاقبة، تمّ الانتقال إلى المنزل في ثلاثة أيام. كان العمل الأطول هو البحث عن أثاث أحلامهما. إلى اللحظة المجيدة للقائهما، عاش هذان الكائنان البشريان في الماضي، والاستثناء العاطفي. في الوقت الحاضر، يريدان أن يستسلما للحداثة لكي يلتفتا نهائياً نحو المستقبل. كانت الميول الحديثة غالباً كاشفة للأزمنة الماضية الكابتة. فاشتريا مكنسة كهربائية موجّهة عن بعد صوتياً، ومحمِّصة خبز لا تحرق الخبز، وبساطاً، وستائرَ بألوان مختلفة، الخ. اشتريا كذلك سمكةً حمراء تسمّى «أورانج ميكانيك» (أورانج اسمها الأوّل)؛ سرعان ما تحوّلت تلك السمكة إلى فردٍ كامل العضوية في أسرة الزوجين.

نالت بريجيت شهادتها وتهيّأت لأن تصبح مدرّسة لعلم الاجتماع. طبعاً كانت ترتدي تايورات، وبالتالي سوف يفكّر العديد من الطلاب فيها، مساءً، في عتمة مراجعاتهم. طبعاً، سوف يحتمل هكتور بمشقّة كافية هذه الفكرة، تأخذ به الغيرة والسعادة في آنٍ واحد. بزواجه بها، أراد أن يجعل منها أميرةً لمملكةٍ يكون هو مواطنها الوحيد. بالتالي، عرض شيئاً مختلفاً تماماً: تأسيس شركتهما الخاصّة! إنها فكرة أخّاذة، وأصبح هكتور شخصاً ذكيّاً بكفاءات جيّدة في التفكير بمشاريع حياتية. رغبت بريجيت أيضاً في أن تعمل معه، وألاّ تتركه لثانية واحدة، وأن تحبّه كمتعطّشة للحب. ولكن ما العمل؟ ما العمل؟ تساءلت. فجعلها هكتور تتوسّله ليكشف لها الفكرة العبقرية التي عبرت ذهنه. منتصباً على السرير، رافعاً سده، هتف فجأةً:

«للمولعين بالكذب!

- ماذا للمولعين بالكذب؟

- وكالة سفريات للمولعين بالكذب!».

تلك كانت فكرته. وسريعاً جدّاً، تحقّق نجاحٌ باهر. أسف الجميع لترك هكتور شركة Gilbert Associate and Co. ارتجف أرنست انفعالاً برؤية أخيه الصغير يطير هكذا بجناحيه الخاصّين. فكّر بأنّ هذه ستكون ذات يوم حال ابنته لوسي، وأنّ ذات يوم أبعد، سيموت بسرطانٍ ينهش عظامه. كان محكوماً بالازدهار ومن ثمّ بالتدهور، وبين الاثنين، كان يقضي حياته في الانغماس بالرّذيلة.

كانا يعشقان دعوة العائلة إلى الغداء ظهيرة يوم الأحد. أَلم يُخلَق ظهر يوم الأحد لهذا الغرض؟ كانت بريجيت طبّاخة غير ماهرة يمكنها أن تفسد حتى طبقٍ جُلب من الخارج. في المقابل، كانت تجيد تماماً ترتيب الطاولات. خاصّة تلك الطاولة التي يستخدمها الزوجان لممارسة الجنس عليها. أفرغت أحشاء ثلاثة ديكة رومية بارتباكٍ بحيث يمكن لهكتور أن يكون فخوراً بزواجه منها. وبالديك الرومي أيضاً، قاما بخدعةٍ. لقد تفاهم الجميع بطريقة مثالية. جرى الحديث عن الشوارب، لكنّ جيرار شرح لبرنارد بأنّه لم يكن ممكناً ارتقاء جبل ڤينتو بوجود شاربين، الشَعر يكبح. أومأ والدا بريجيت بإشارةٍ من رأسيهما، فخورَين كثيراً بجيرار حينما يتحدث عن الدراجة. حينما راحت لوسي تفقأ بعض البثرات في الحمّام على الضوء الراشح، طالب الوالدان المدعوّان لكلٍّ من الزوجين آنذاك بذرّية. رأى أرنست أنّ ثمّة مبالغة في الاعتناء بالأولاد وكأنّهم في عطلة صيفية في سويسرا: «هذا صحيح، وكأنّهم جميعاً يعانون من الربو! في هكذا ظروف، كيف يمكن أن نندهش لميوعة هذا الجيل وعدم نضجه؟» بعد هذه النظرية الأرنستية (التي تحطّمت، عرضاً، وسط نوعٍ من الانذهال اللطيف)، اعترف هكتور بأنّ إنجاب طفلٍ ليس ضمن مشاريعهما الآنية. وثمّ، لم يكن من الممكن خيانة «أورانج ميكانيك» التي شرعت بالاسترخاء في هذا القمقم الجديد حيث كانت ترى الحياة وردية.

كان المشروع الراهن هو توسيع AVM (وكالة السفريات للمولعين بالكذب). كانت بضعة أسابيع كافية لأن تُملأ كلّ الصفوف. وإذا كانت AVM قد عرضت، عند انطلاقتها، بشكلٍ خاصّ الولايات المتّحدة وأمريكا الجنوبية، لم تعد هناك عملياً زاويةٌ من الكرة الأرضية لم تحظَ بدراستها. كان يمكن، في غضون ستّ ساعاتٍ فقط من التدريس، إيهام أوّل قادم بأننا قد أمضينا ستّة أشهر في طاجيكستان، في العراق، أو، بالنسبة للأكثر مجازفةً، في تولون. كان مدرّسو AVM يدرّسون، بحسب تعبيرهم الخاص، النوادر التي تقضي على كلّ معارضة كلامية، والتي تبرهن دون أدنى شك على رحلتكم. بل وكانت هناك دلائل بمثابة مفاتيح: للحديث عن بلدٍ ما. قولوا بأنّه **لم يعد هناك أيّ شيء كما كان من قبل**، وسيوافق الناس دائماً دون أن يعرفوا عن ماذا تتكلّمون. أخيراً، بالنسبة للأكثر ثراءً، كان بوسع الشركة أن تقدّم براهين، ذكريات مشخصنة يمكنها أن تجتاز صراحةً حاجز الصورة المركبة، البسيط. أو، بالنسبة لبعض المناطق المعروفة الخطيرة، هناك إمكانية التعرض للجروح، ولو قليلاً. كان هناك على سبيل المثال قسم: «فيتنام 1969، مع خيار جراح الحرب».

كانت هناك، في مدخل الوكالة، مقالة صحافية مؤطّرة تعرض هذا الاستطلاع الذي أُجري على عيّنة نموذجية من ألف رجل.

أ) هل تفضّل أن تُضاجع أجمل امرأة في العالم دون أن يعرف أحدٌ بذلك؟

ب) هل تفضّل أن يعتقد الجميع بأنّك قد ضاجعت هذه المرأة دون أن يكون ذلك قد تمّ بالفعل؟

أكّدت النتيجة بطريقة مبالغة أنّ كلّ شيء، في شركتنا، ليس سوى مسألة **مراعاة الآخرين**. فقد اختار 82 في المئة من المستَطلَعة آرائهم الإجابة الثانية.

*

كان هكتور يحب الجلوس بلطف على كرسيٍّ لقراءة مجلّة متخصّصة في الديكور. وجد أن أسعار المفروشات الانكليزية جنونيّة. وشعر بأنّه مرتاحٌ في بيته، مع زوجته. يأخذه الضجر، أحياناً، على حين غرّة، خلال بعض أيام الثلاثاء أو السبت دون مفاجآتٍ ينبغي عليه تعلّم القضاء عليها. وفي هذه اللحظات أيضاً، يُدركان قيمة الجنس المُتخِمة: كانا يردمان جوف حياتهما بالاندماج معاً، يسدّان الثغرة بالشبق. يضع هكتور مجلّته، وكان يحدث له، وهو يلثم ثغر بريجيت، أن يبلغ ذروة السعادة. سعادة غامرة تبرز كجيشٍ نابليونيٍّ في بروسيا. لا تنعدم المجازات قطّ لحظة تبادل القبلات. بفضل نجاح شركتهما، أقام هكتور وبريجيت في شقّة من خمس غرف مؤلّفةٍ من صالونٍ فسيحٍ وأربع غرفٍ. يغيّر الزوجان الشبقان، كلّ مساء، السرير لممارسة الحبّ. اعتقاداً صادقاً منهما بأنّ الرتابة مسألة مكان لا جسد، أوهام.

2

من المستحيل معرفة لحظة قضاء الأمر. يتعلق الأمر بالتأكيد بصدى غامض لشعورٍ برحيلٍ غامض. من جهة أخرى، لا يمكننا القول إنّ هكتور قد ذُعِر في الأيام الأولى.

كان ذلك الصيف أكثر من وعد، كنا نعلم بيقين أنّ أشعّة الشمس تدغدغ جسد العشّاق؛ في وقتٍ يتحدّث الجميع عن موت الفصول، الموضوع المفضّل لكلّ مَنْ لديهم **بالفعل** شيئ ما ليقولوه لبعضهم، سوف لن يغدر ذلك الصيف بأحد. ارتدت بريجيت أسمالاً بالية لتقوم بما تسمّيه تدبيرها المنزلي. أراد هكتور أن يساعدها (كان قد انقضى عامٌ واحدٌ فقط على زواجهما)، ولكنّ بريجيت ضحكت قائلةً إنّ مساعدته ستكون مضيعةً لوقتها، آه من الرجال. أخذ هكتور يدندن بكلمات أغنية قديمة، كانت بريجيت مغرمة بصوته. شعرت بأنّها سعيدة وهانئة البال، سعيدة حتى في التنظيف الذي تقوم به عصر يوم السبت. في ذلك الصيف، قرّرا ألاّ يسافرا، وأن يستمتعا بباريس من دون الباريسيين. سوف يتنزّهان على طول ضفاف السين، مساءً، مع النجوم المتلألئة والعشاق المسمّرين

بسعادتهم. ستكون بريجيت أميرة. آنئذٍ، عليها أن تنظّف. أشعّة الشمس أظهرت حاجة الزجاج للنظافة.

افتقار الزجاج للنظافة. هذه هي بداية مأساتنا.

زجاج النافذة مفتوح. من بعيد، يُسمع بالتأكيد صخب النساء المستعجلات والرجال المستعجلين للحاق بهنّ. هكتور، على عادته، جالسٌ لقراءة مجلّة متخصّصة في الديكور، يفكّر بتأثيث صالونه مثلما كان بوسعه أن يفكّر بدخول أطفاله إلى المدرسة إن كان قد حظي بالوقت للإنجاب. انهمكت بريجيت في تنظيف بيتها، رفع هكتور رأسه، ترك المجلّة. بريجيت على سلالم خشب نصفية، قدماها ليستا على الدرجة نفسها، بينما تتحمّل ربلتا ساقيها ثقلين مختلفين؛ بعبارة أخرى، كانت الربلة الأولى على الدرجة العلوية ذات استدارة لا تشوبها شائبة، بينما ظلّت الثانية موسومة بالتوتّر الناجم عن بذل الجهد. واحدة منهنّ ساذجة، والأخرى خبيرة. بعد رؤية ربلتيها، رفع هكتور رأسه من جديد ليقبّل بالنظر وركَي زوجته. أحسّ بحركة خفيفة، أمواج منتظمة مثل الارتدادات الهادئة للمساء، رفع رأسه أكثر وكان ذلك كافياً لفهم سبب تلك الحركة. بريجيت تنظّف الزجاج. تمهّل. بريجيت تنظّف الجزء العلوي من الزجاج. إنّه عملٌ جيّد، واستغلّت الشمس أولى الثغرات الناجمة عن النظافة. برقّة، بوضوح في رسغها، نظّفت بريجيت وأزالت أدنى اللطخات عن الزجاج؛ ليكون ملمّعاً، شفّافاً كان شعر بريجيت مرفوعاً عاى

شكل ذنب حصان. فأعادت جمع بضع خصلات من شعرها إلى المجموعة. لم يشهد هكتور قط شيئاً بهذا القدر من الشهوانية. بالتأكيد، فإن تجربته بشأن الشبق قليلة الشأن. دبّ الدفء في الصالون من حرارة الشمس. وإذ شعر ت بريجيت بأنّ نظرةً مسلطة عليها، استدارت لتتأكّد من ذلك: فعلاً، كان زوجها هكتور يركّز بصره عليها. لم تستطع أن ترى إلى أيّة درجة كان حلقه جافّاً. وها قد أصبح الزجاج نظيفاً. جاء هكتور ليتواجه مع السعادة، الأمر بهذه البساطة. ينبغي خاصّة ألاّ يُرى في ذلك مظهرٌ ذكوريٌّ، هكتور هو النموذج الأقلّ ذكوريّة، تعلمون ذلك. صحيحٌ أنّ السعادة لا تعلن عن نفسها أبداً. في بعض الحكايات، تتجلّى في اللحظة التي ينقذ فيها الفارس الأميرة؛ هنا، تظهر في اللحظة التي ينظر البطل فيها إلى البطلة وهي تنظف الزجاج.

أنا سعيد، فكّر هكتور.

ولم تكن هذه الفكرة في وارد مبارحته.

بعد التنظيف، غادرت بريجيت لتنضمّ إلى زميلة للاستفادة من تنزيلات شهر تموز؛ وستعود من غير شكّ بثوبين، وصدرية بنفسجية وأربعة سراويل داخلية. كان هكتور على موعدٍ مع اللاشيء، فظلّ جالساً قبالة الزجاج النظيف. ثمّ، فجأةً، نهض واندهش من لحظة الغياب التي عاشها. انقضى نصف ساعة مذ خرجت زوجته. عاش خاملاً، جافّ الحلق، في عالمٍ ميّت. لم تعبر أيّة فكرة دماغه.

في عتمة الليلة التالية، فكّر هكتور من جديد بتلك اللحظة العظيمة حينما كانت زوجته تنظف الزجاج. لحظة السعادة المطلقة تلك، لحظة في حياة زوجتي، فكّر، لحظةٌ محبّبة. ساكناً، وقف قبالة الظلمة بابتسامة، مستهزئاً بتقدّمه المدهش بكلّ ابتسامات ماضيه. كلّ الذين يعيشون سعادة كبيرة يعانون الخوف من ألاّ يعيشوا ثانية تلك اللحظة. أقلقته غرابة اللحظة كثيراً. كان يحبّ أحياناً بطريقة غريبة وسط طراوة الحياة اليومية، ربّما كان ذلك بهذه البساطة. لا ينبغي على المرء أن يسعى لفهم ذلك، غالباً ما تُفسَد حالات السعادة بتحليلها. فداعب هكتور بلطف ردفَي بريجيت، كان سروالها الداخلي جديداً. التفتت، بأنوثة لا تُملّ، وغادرت أحلامها إلى رَجُل سريرها. انسلّ هكتور على طول جسد بريجيت وباعد ما بين فخذيها؛ أضاعت أصابعها بين شعره. حلّ التوازن سريعاً، كان جسداهما متقابلين، أبيضين وناشطين. ضمّت بشدّة ظهره، أمسك برقبتها. على حافة الشبق، نعس العنف. لم يكن هناك أيّ شيء سوى الفعل. أثارت التأوّهات التفكير بجرعات من الماء في الصحراء. لم يكن من الممكن معرفة من كان يستلذّ أكثر، توقّفت الدراية بكلّ شيء أمام نشوات الجماع الممكنة. نعلم فقط أنّ هكتور، في لحظة القذف، وبينما يكون رأسه كصدفة فارغة، يظلّ، في لحظة بلوغ الذروة، مسكوناً بتلك الصورة، صورة بريجيت التي تنظف الزجاج.

مرّت الأيام التالية بلا عائق. فكّر هكتور من جديد بما

شعر به، من دون أن يكون قادراً بعد على إدراك الصلة بماضيه. معتقداً بأنّه قد شفي تماماً من مرض هواية الجمع، سخر أحياناً من طريقته المجنونة تلك في عيشه لحياته على هامش ما هو جوهري. منذ أن التقى بريجيت، بدت له كلّ فكرة عن الانتكاس غير محتَمَلة. كان للشبقية الواضحة، والنكهة البريجيتية، وكلّ هذه الأحاسيس الجديدة نقطة مشتركة: الوحدانية. لم تكن هناك سوى بريجيت واحدة هي خاصته، وبالسقوط عبادةً أمام **شيءٍ وحيد**، شيء أحبّه، انفطم عن قلقه التجميعي. يمكن للمرء أن يجمع النساء، ولكن لا يمكنه جمع المرأة التي يحبّ. كان شغفه ببريجيت فريداً لا مثيل له.

وكلّما أحبّها أكثر، كلّما أصبحت فريدة أكثر.

كلّ حركة من حركاتها، فريدة.

كلّ ابتسامة من ابتساماتها، فريدة فرادة رجل.

ولكن لم تمنع هذه البداهات الانحصار المحتَمَل بواحدة فقط من تلك الحركات. ألم يكن هو ما يُدبّر في عقل هكتور؟ مبالغاً في الثقة بنفسه، نسي ماضيه والعناد الذي كان مرض التجميع يعاوده به. تنشّقت الفكرة الثابتة عن تنظيف الزجاج على الانتكاسة الغدّارة. كان على هكتور أن يكون حذراً جدّاً، فالظلم يتربّص به، والظلم، وفيّاً لوقاحته المعروفة، لا يستأذن أبداً للدخول.

3

ما كان البعض منّا يخشاه حدث. لم تعد كلاريس تقلّم أظافرها منذ ما يقارب شهرين، حينما وافقت على فعلٍ جنسي، همجيٍّ جدّاً، مع أرنست. أشبع شهوته وكلّفه ذلك خدوشاً عديدة على ظهره، آثاراً لا غنى عنها لعشيقةٍ نَمِرة. كأخٍ كبير لهكتور، ولا سيما كأحمق كبير، كان على أرنست ألاّ يتعرّى خلال اثني عشر يوماً بالتمام والكمال، وأن يوهم جوستين بأنّه يعاني من برودة في ظهره. الخوف من أن يُكشَف لم يجعله يندم على كلّ تلك اللحظات التي قبّل فيها كتفي كلاريس النمِرة، في عتمة شعرٍ غزير. إذا كان الحبّ الجسدي دون نتيجة، فإنّ جوستين تورّطت في المأزق لكي ترفع، في عزّ الليل، قميص زوجها الذي، لا بدّ من القول، كان ينام منذ اثني عشر عاماً عاري الجذع. كان هناك ما يُريب، والنساء دائماً حاضرات البديهة لما هو مريب. اضطرّ لأن يجمع حقيبته حتى دون أن يقضي ليلته، ناهيك عن ذلك الحلم الماجن الذي بدا واعداً (امرأة صينية). قبل الفجر، دقّ باب بيت أخيه ليخبره بأنّه قد ضاجع امرأة سمراء من

المديرية، اسمها كلاريس، وأنّ زوجته، اللعنة على الأظافر، قد طردته.

- هل يمكنني أن أنام في بيتك.

أخيراً سوف ينام، كان يشكّ في أن يستطيع ذلك، ولكنّ الصحيح أنّ النوم في الفندق مع ما حدث له، لم يكن يستهويه. وجد هكتور الطاقة اللازمة ليُظهِر في آنٍ واحدٍ الشفقة والحنان الأخويّ، ويقدّم له سريراً هو أريكة وثيرة وحديثة. شعر أرنست بأنّه مرتاح في هذا السرير الجديد (ليت الصينية تعود...)، قبل أن يتمالك نفسه كما ينبغي في المصيبة.

لطالما كان أرنست صلباً. وها هو هاوي العبارات الطنّانة عن الحياة، يتحوّل إلى خامل في يوم الأحد. أسوأ أيام الآحاد، ذلك الذي اختزِل لنا في ساعةٍ واحدة. استعاد كل تلك السنوات التي لم يتألّم فيها. كان الرجل المسكين يغرق في النفق... وابنته! لوسي الصغيرة، يا إلهي، سوف لن يراها أبداً! بل ولن يكون حاضراً حينما ستعود مع العيون المحمرّة للمراهقات المخنّثات والمنحرفات. ها قد انتهى كلّ شيء. ينبغي دائماً النظر إلى أظافر النساء اللواتي نضاجعهنّ. يا له من غبيّ! لم يعد يتبقّى له سوى العمل، وسينهمك فيه منذ الغد لكي يغرق في الملفّات. أمّا طلاقه، فالقول المأثور معروف: الإسكافي حافي، الخ. هنا، كان الحال شبيهاً بذلك؛ فقد ترافع المحامون بغاية السوء عن قضيّتهم. ولذلك أيضاً غالباً ما تزاوجوا في ما بينهم، لإلغاء المفعول. سيطلب أرنست من

بيرتيه أن يعتني به. كان بيرتيه هذا مقداماً. علاوة على ذلك، وكعازب محنّك (بلغ بيرتيه تلك المرتبة من العزوبية التي يُنسى فيها وجود النساء)، سيفعل كلّ شيء لتسريع الأمور. بين الرجال الذين سيضجرون في الحياة الصرفة، لا بدّ من التعاون. كلاّ حقاً، سيكون ممتازاً بيرتيه هذا. حتى أنّه قد يستحقّ أن يُنوّه به عمّا قريب في هذه الحكاية.

*

ارتبك هكتور كثيراً بورطة أخيه، وأكثر من ذلك أيضاً بغرابةٍ: كان أرنست، البطل شبه الأولمبي للسعادة حتى ذلك الحين، يغوص في اللحظة المحدّدة التي كان هو بنفسه يرى فيها أخيراً الحياة الوردية. لم يرد والداه ولدين في الوقت نفسه؛ بعبارة أخرى، لم يكن بوسعهما أن يكونا اثنين تماماً، في آنٍ واحد، جالسين على الصندوق نفسه. وكأنّ الدولاب قد دار، وأنّ أرنست سوف يعيش بدوره، ومن دواعي السعادة الكبرى لهكتور، حياةً محبطةً. كانت حياتهما كشقيقين عبارة عن فصامٍ.

*

بدت فرضية الدولاب الدائر بين الأخوين مستحيلة تماماً، لأنّ هكتور لم يكن في ذروة لياقته. تكمن الفترات العصيبة دائماً خلف لحظات السعادة. قد يبدو هذا مضحكاً، خاصّة في هكذا سياق (بريجيت جميلة جدّاً، وشركة في عزّ توسّعها، وطفلٌ وسط نجوم التأجيل)، ولكن هكتور بدا فعلاً مضطرباً. منذ ذلك الصباح، دار في دوّامة، وشعر بأنه لن يفلت من هذه

الدوّامة. همّت بريجيت، في ثوبٍ صيفيٍّ خفيف، بمغادرة الشقّة. بدا هكتور في حالة مزرية. حتى أنّه لم يحلق لحية الرجل المتعَب؛ كان شعره المفتقر تماماً للجاذبية أشبه بشعر موظّفي صباح الأثنين. في كلّ الأحوال، لن يُسر أحد برفقة أحمق.

بعد ذلك بقليل، وُجِد جالساً في أريكته. سارت أفكارٌ فظيعة في ذهنه. أمام الزجاج المغسول يوم السبت الماضي، أو ربّما ذات سبتٍ أبعد من ذلك (كانت الذكرى تعاوده غالباً حتى أنّه لم يعد يعرف بالضبط إلى متى تعود تلك اللحظة التي لم يكن قط سعيداً فيها)، ظلّ صامتاً. الفناء الجذّاب، الشبقية الخادعة، ربّما سوف يموت في ذلك اليوم لأنّ توماس مان(*) قد كتب: «مَنْ تأمّل الجمالَ مقدّرٌ له الموت». كانت بريجيت التي تنظف الزجاج إلى حدٍّ ما روايته **الموت في البندقية** بالنسبة له. ولكن هكتور لم يكن يعرف مَنْ هو «توماس مان»، فكان بوسعه أن ينجو. الجهل يُحسن إنقاذ الحيوات. آه، من عصر ذلك السبت! لحظة أسطورية كان على الزمن أن يتوقّف فيها، احتراماً لهكذا جمال! كان هكتور، أمام الزجاج، دائماً وأبداً أمام الزجاج، يبكي حبّاً. هل يمكن للمرء أنّ يحبّ بهذا القدر امرأةً؟ امرأة في كلّ قوّة ضعفها. هذه هي اللحظة التي ينظر إليها كذكرى. لحظة غسل الزجاج تلك التي لم يخترها مثلما

(*) توماس مان: مؤلف قصة «الموت في البندقية».

لا تُختار صعقةُ حبٍّ. لو يعود كلّ الأزواج إلى أمكنة لقاءاتهم دون ملل، فلهكتور الحقّ تماماً أن يعيش من جديد تلك اللحظة التي غسلت بريجيت فيها الزجاج. ستغدو تلك اللحظة طريق الحج إلى حبّه.

وبالتالي، أمضى نهاره في تلويث الزجاج.

تلويث زجاجٍ نظيفٍ مع محاولة الإيهام بأنّه قد تلوّث من تلقائه ليس عملاً بهذه البساطة. جرّب هكتور - قبل أن ينجح بإتقانٍ حقيقيّ لتوهّم طبيعي- عبثاً عدّة طرائق. من خلال تجارب متعاقبة، بلغ الكمال في ما كان عليه اعتباره فنّاً جديداً. كان تركيبه الناجع هو التالي: بعض آثار الأصابع وضِعَت بمهارة، ذبابةٌ ملتَقَطة على الطائر ثمّ مسحوقة مباشرةً (سرعة التنفيذ مسألة جوهرية لأنّ ذبابةً محتضرة، مع رجفاتها الأخيرة، تلوّث أكثر من ذبابة ميّتة تماماً)، وقليلٌ من غبار الشارع، وتتويجاً لكلّ شيء، قليلٌ من اللعاب...

كان هكتور يتحدّث على الهاتف مع أخيه:

- لقد مُنِحتُ شقّة حين عودتي، فقد أُنجز الأمر بسرعة، قال هكتور ليتلاعب بالكلمات. وضحك أرنست ليوهمه بأنّه قد فهم - حينما عادت بريجيت من العمل. ما إن أغلق السماعة حتى برّر غيابه عن العمل بصداعٍ ألمّ به. ابتسمت بريجيت:

«أنت ربّ عمل مثلي، لا داعي للاعتذار منّي!»

لم يكن هناك وقت للإضاعة. كان على بريجيت أن تُلاحظ وسخ الزجاج. مباشرةً، أصبح هكتور أمام واحدٍ من أكبر تحدّيات إنسانيتنا: محاولة أن نجعل أحداً ما يكتشف ما لا نيّة لديه لاكتشافه.

فكّر هكتور، المستعجل جدّاً، أن يقول، بالطريقة الأكثر عاديّةً «انظري، الزجاج ملوّث» ولكنّه استدرك؛ لم يكن ذلك ممكناً. في كلّ الأحوال، سوف تسأله لماذا لم تقم ببعض أعمال التنظيف وقد بقيت في البيت طيلة النهار؟... فاضطرّ لاستبعاد تلك البساطة في التحليل، التي قد تتحوّل إلى مشهد تنظيف. اضطرّ لأن يجذبها إلى الصالون، ويجعلها تكتشف أصيص الورود. بعد ذلك، كاد أن يتأكّد من أنّها ستنظّف في الحال: سوف لن تدع قط هكذا زجاج ينجو. ولكن طال اليوم وبدا لا نهاية له. كان على بريجيت أن تقوم بأعمالٍ كثيرة جدّاً في المطبخ، أو في الغرف، حينما نجح، أخيراً، في معجزة مسائية، في استدراجها إلى فخّ الصالون، لم تنظر ولا مرّة باتّجاه الزجاج. ظنّ أنّها تتعمّد ذلك. تقافز هكتور أمام الزجاج، ثم فجأةً طأطأ رأسه. ضحكت من حماقات زوجها الساخر. تحسّر بمرارة لأنّه لم يجرؤ على تنبيهها بصراحة ووضوح. ربّما سيحين الوقت، وسيكفي أن تدير ظهرها حتى ينكبّ على المزيد من التلويث! مفرَط التعب من الوضع، مفرَط الإنهاك من الرغبة، شعر بأنّه غير قادرٍ على الانتظار أكثر. فاختار الحلّ الأكثر رداءةً، وأمسك بريجيت من

خصرها. أمام الكوّة المزجّجة، عرض عليها أن تتأمّل في واحدة من أكثر المناظر رومانسيةً.

«عزيزتي، لو ترفعين عينيك، سيمكنك ملاحظة شيءٍ غريبٍ جدّاً...

- آه نعم، ماذا؟

- حسنٌ، تخيّلي أنّك ترين المبنى المقابل...

- نعم، وماذا بعد؟

- وماذا بعد؟ وماذا بعد؟ هذا جنون... وانظري، يمكن رؤية ما يحدث في الشُقَق.

- أجل... هذا ما يُدعى وجهاً لوجه. قل إذاً، صُداعك، ألم يخفّ... (**بعد حين**) ولكن هذا الزجاج متّسخ!».

(متعة الصياد حينما يقبض على فريسته، نشوة المحارب في الغزو، الحياة حلوة كأنما أحد ما يحرسك.) دون أن يفاجئ أحداً، اعتمد نبرة خفيفة بائسة ليبدي دهشته:

«آه حسنٌ، ترين أنّه متّسخ، أنا لم ألحظ ذلك...

- لا أعرف ما تريد... لم أجد قطّ زجاجاً بهذه القذارة!».

تصرفت بريجيت بمزاج رائق لنساءٍ لم يُباغتن أبداً. وإذ لم يسع هكتور أن يكبح انتصاباً خفيفاً، تراجع لثلاثة أمتار مسترخياً في كرسيّه المريح. كان يشبه مكعّب ثلجٍ ينزلق إلى قاع كأسٍ من الكحول، تماماً قبل أن يطفو إلى السطح. بريجيت، التي لم تكن لها عينان في قفا رقبتها، لم تلحظ شيئاً. لم ترَ

زوجها، فضلاً عن خيط اللعاب الذي كان يسيل منه، اللعاب الذي بدأ بالتدفّق على ربطة عنقٍ بريئةٍ.

حينذاك.

حينذاك رنّ الهاتف.

لم يتزحزح هكتور، وكلّ ما تبقّى ما عاد موجوداً. بعد ثلاث رنّات، التفتت بريجيت وسألت إن كان ينوي الردّ قبل موت المتّصِل (إذاً كانت بريجيت فكِهة). لم تلحظ لعابه السائل، مع أنّه ملفت للنظر، كانا لا يزالان في غمرة الحبّ الأعمى. «نعم، أنا ذاهبٌ لأردّ»، بادر إلى القول. كان عليه خاصّة ألاّ يغيظها، وكأنّها حامل. مَنْ يتّصل في أسوأ الأوقات يستحق على الأقلّ أن تُبتَر يداه وتُنزَع حباله الصوتية ويُنتَف شعره. مشى هكتور القهقرى، عيناه معلّقتان بالمشهد. رفع السماعة، وتركها تحتضر لبضع ثوانٍ في الهواء، ثمّ أغلقها منتهكاً حتى قاعدة مبدأه.

«اتّصالٌ خاطئ!» صرخ تلقائياً.

عاد وجلس. فجأة، ودون أن يعرف تماماً أين حدث ذلك، استغرقه الانفعال. انهمرت دموعٌ على وجهه تماماً مثلما يسقط رجال «ماغريت»[10] من السماء. لم يندم هكتور على شيءٍ إطلاقاً. تكرّر جمال تلك اللحظة. دون دهشة المرّة الأولى، ومع ذلك كان هناك المزيد في سحر تلك المرّة الثانية، جرعةٌ مذهلة من التخوّف، قلقٌ من خيبة الأمل، وفي

(10) الرسام البلجيكي رينيه ماغريت. (المترجم)

النهاية، لإخفاء الأدرينالين، كان ذلك فتكاً بسكون الألم. الزجاج نظيف، الستارة حمراء. نزلت بريجيت من السلالم النصفية، ولكنها لم تستطع الحركة لأنّ هكتور ارتمى على قدميها وتمتم بالشكر والعرفان. كان الأمر يتعلّق بإظهار مزاج زوجها المريب، وبالتالي، هي أيضاً، أخذت تبتسم. تبتسم كامرأة وجدت مَنْ تحبّه أبله.

4

رفعت لورانس الطبق لتستنشق ملء أنفها رائحة لفائف اللحم. شعرت بأنّها بحال جيّدة في مطبخها المريح وتستمتع بمساء ذلك السبت وسط الأصدقاء لتخفّف الضغط عن نفسها؛ قريباً، ستكون في نهائي مسابقة مهمّة لاحترافها الدولي. كان مدرّبها قد ترك لها حوالي عشرة أيام من العطلة، ولكنّها لم تمتنع عن الذهاب للمس الكرة، والعمل وشد قبضتها الأسطورية؛ هذا ما علِمناه أخيراً. أحسن مارسيل التفكير في دعوة هكتور وبريجيت إلى العشاء. كانت سعيدة بلقاء صديق زوجها. لم تكن تعرف تماماً لماذا ولكن منذ ما يقارب عامين، كثيراً ما تجنّب مقابلتها. أخيراً، لم تعد تبالي كثيراً بذلك رغم كلّ شيء. كان يتملّك هكتور ذعرٌ شديد منها منذ فعلتها السيئة تلك حينما جسّت خصيتيه. مع ذلك، من وجهة نظره حيالها، لم يكن ذلك سوى دليل محبّة. وبالتالي كان الغرض من ذلك هو أيضاً توضيح الأمور حينما دعته إلى المطبخ.

اجتماعياً، لم يكن بوسعه أن يرفض.

دخل إلى صالة إعداد اللفائف شاحب الوجه بارد الدم. أو العكس.

«هل يمكنني أن أساعدك في شيء؟ سائلاً.

– نعم، أودّ أن نتبادل الحديث، لحظة... في الواقع، نعم، لا أفهم لماذا تتهرّب منّي كلّ هذا الوقت... حينما سافرتَ إلى الولايات المتّحدة، ظننتُ أنّ ذلك بسببي...»

وهي تقول ما تقوله، تقدّمت لورانس ببطء ولكن بثقة نحو هكتور، كانت تريد أن تُصلح علاقتهما، وتعتذر عن اعتدائها الجنسي، ومع ذلك، برؤيتها لهذا الصديق الوفيّ لمارسيل، تحرّقت لغريزة جنسية خافتة، غريزة لا يمكن كبتها كما في زمن تراجيديات راسين. فانقضّت على فيدر اللفائف، وحينما أرادت أن تمسك بخصيتي هكتور ارتطمت يدها بسطحٍ صلب. تحسّباً لتلك السهرة، وبتخوّفٍ مبرّرٍ، كان هكتور قد حمى ما بين فخذيه بصَدَفةٍ كالتي يضعها لاعب كرة القدم. صرخت لورانس، وفي الحال، هرع الجميع إلى المطبخ. أسرعوا إلى قسم الطوارئ، وتمّ التشخيص بلا جدوى: كان خنصر لورانس ملتوياً. في اليوم التالي، روي ذلك بالتفصيل على نطاقٍ واسعٍ في الصحف الرياضية: **لورانس لوروا تنكث بوعدها**. بكى المعجبان بها في «ايڤري».

أحسّ هكتور بأنّه مذنب. يجب أن يكون لكلّ رياضيٍّ الحقّ في جسّ خصيتي مَنْ يُعجبه، وخاصّة دون مانع. كان على جيرار، قبل ورزازات-الدار البيضاء، أن يبدي اندفاعاً فائقاً. شعر هكتور بأنّه مخطئٌ كثيراً، وكان ذلك شعوراً ثقيلاً على الحمل (لنتذكّر بأنّه سبق وتعيّن عليه أن يتحمّل انجذابه

غير الطبيعي إلى غسيل الزجاج البريجيتي)، ستكون معنويات الفرنسيين منخفضة بسببه. مع الفروسية والمبارزة بالسيف، تُعدّ كرة الطاولة واحدة من كبرى مفاخرنا. نحن شعبٌ رياضيّ! وها نحن لم نعد شيئاً سوى كومة من الخناصر الملتوية.

ما روي للتوّ بالتفصيل ليس صحيحاً تماماً، وهذا الحياد عن الواقع ينبغي أن يُنسَب إلى هكتور. كان خياله قد سرح نحو الأسوأ. لا شكّ أن لورانس قد جُرِحت، ولكن بفضل صديقها المدلّك الطبّي، استطاعت أن تتعافى، وسوف تشارك في النهائي، آهٍ. إلاّ أنّها وهنت ذهنياً، وللمرّة الأولى منذ اثني عشر عاماً، طلبت من مارسيل مرافقتها. ولأنّه بالغ الحساسية لمتابعة مباريات حبيبته، لم يرد قط أن يذهب معها. في ما يتعلّق بالخنصر الملتوي، سيكون عليه تجاوز قلقه. لمواجهة هذه الحالة، لم يكن له سوى التوسّل إلى صديقه هكتور لمرافقته. مع أنّ كرة الطاولة منذ زمنٍ بعيدٍ جدّاً كانت أقلّ رياضة في العالم تهمّه، دفعه جُرمه الحديث إلى الموافقة. سوف يرحلان هذا السبت طيلة النهار. سأل هكتور بريجيت إن كانت هذه السفرة غير المتوقّعة على الأقلّ منذ ستّة أشهر لا تزعجها. مطلقاً، سارعت إلى طمأنته؛ كانت امرأة قادرة على أن ترتجل كلّ شيء في يوم سبتٍ كهذا. فضلاً عن ذلك، على عجلٍ، وبصوتٍ عاديٍّ جدّاً، أضافت:

«سأستفيد من ذلك للقيام ببعض التنظيف المنزلي.»

الجملة التي ظلّت معلّقة في الهواء، لتشكل المتنفس

الوحيد لهكتور. كيف استطاع أنّ يفكّر بشيءٍ آخر؟ ستقوم ببعض التنظيف المنزلي. انتابته فورات عنيفة من الضيق والقلق. لم يجرؤ على طرح السؤال المتسلّط عليه، لم يجرؤ على السؤال عن تفاصيل هذا التنظيف. ولكنّها قطعت الطريق على كلّ سؤال لأنّها استطردت بأنّها ستنتهز الفرصة لتنظيف الزجاج. لأوّل وهلة، وبطريقة عنيفة تماماً، فكّر مرّة أخرى بمحاولته للانتحار. فضلاً عن ذلك، حاول أن يتمالك نفسه، كان رجلاً في النهاية! كانت الفكرة الأولى التي راودته هي أن يقوم بنفسه بتنظيف الزجاج صباح السبت؛ على الأقلّ، سيتأكّد من أنّها لن تفعل ذلك أثناء غيابه. وأيضاً، كان في وسعه أن يعلن لبريجيت أنّ المطر سيهطل غزيراً يوم الأحد، الإعلان الذي سيجعل من مشروع تنظيف الزجاج دون معنىً، ماء المطر يعشق إذلال الزجاج النظيف. اجتاحت عشرات الأفكار رأسه. لم يكن بوسع أيّ شيء أن يغيظه أكثر من ألاّ يحضر غسيلاً محتَملاً للزجاج، لم يكن ذلك بكلّ بساطة قابلاً للتصوّر. وجد نفسه أمام مرآة، وبفضل تلك الرؤية، قطع على الفور التسلسل المتعرّج. ارتعد، وبتلك الحركة، تصبّب لآلئَ من عرق. شعر بأنّ قدره يفلت منه من جديد، وبأنّه سيصبح من جديد كومةَ لحمٍ مرتعاً لشياطين غامضة. ارتعش عَوْدٌ أبديّ في داخله.

عذراً، لقد بخسنا قيمة ميل هكتور لأن يكون غريباً. يجب القول إنّ القرار الذي أوشك على أن يتّخذه كان مغيظاً بعض الشيء؛ أقلّه، بالنسبة لكلّ الذين لم يتمكّنوا من الاطلاّع على

عصابه النفسي عن كثب. بينما شوهِد مرتعشاً ومتصبّباً عرقاً قبل بضع دقائق، هل هو علة وشك التصريح: قطعاً عليه ألاّ يمنع بريجيت من تنظيف الزجاج. لم تكن مشكلته هي أنّها تنظّف البيت، وإنّما المشكلة أنه سيكون غائباً. في المحصّلة، اعتبر أنّ ليس له من خيار سوى وضع كاميرا في إحدى زوايا الشقّة. كاميرا خفيّة بالطبع، وسوف يتلذّذ بالصور عند عودته. ها قد وجد الحلّ المناسب. سيكون بوسعه أن يسافر يوم السبت هادئ البال وأن يساند مارسيل الذي يساند لورانس. منذ ذلك الحين، لم يعد يذهب إلى العمل. واشترى معدّات عالية الأداء بما يلبّي غرضه. لم يندم على كلّ تلك اللحظات التي أمضاها في مطالعة المجلات عن التكنولوجيا الدقيقة والأثاث الحديث؛ بل وكان مسروراً بأنّ ذلك الوقت بات أخيراً مثمراً بالنسبة له. خلال كلّ مسيرته، لم يُعِد التفكير للحظة واحدة بهكتور السابق، القادر على التصرّف فقط بقصد الحصول على شيء. ماذا فعل لئلاّ يُدرك إلى أيّة درجة كان قد انتكس؟ عصَب مرضُه عينيه، وبالسيطرة عليه.

لحسن الحظّ كان لدينا صديق، سوف يفسّر لنا، دائماً وأبداً، حياتنا. ومع ذلك، كان مارسيل في وضعٍ قلقٍ. بأنانية، عرف أنّه لو خالف الحظّ لورانس وخسرت المباراة، سيكون الجوّ في البيت سيئاً للغاية، وسيظلّ من الممكن الحلم برؤية طبق اللحم المفروم من جديد. بالطبع لم تكن تلك فكرة مارسيل الرئيسية، وكان كلّ قلبه يتّحد كموجات كونية مع

مساعدة إلهية لرعاية أمور كرة الطاولة. لم يتكبّر، عكّرت آلامٌ خفيفة في المعدة صفوه. وأخيراً بسبب هذا التوعّك توصّل الصديقان إلى الحديث عن تنظيف الزجاج. راغباً في التلهّي، آملاً بتهدئة الانفلاتات الهوائية المعوية لصديقه، ساعياً بكلّ السبل إلى أن يركّز انتباه هذا الرجل الذي كاد أن يخنقه، إلى مكانٍ آخر. اعتقد هكتور أنّه أحسن صنعاً برواية مغامراته الأخيرة. فأخذ يشرح كيف أنّه أخفى آلة تصوير فوق خزانةٍ، وكيف أن الآلة ستتحرك لتلتقط كلّ حركة في محور زجاجٍ ملوّث. توِّجَ مسعاه بنجاحٍ كبير لأنّ مارسيل، مصدوماً بما سمعه، أوقف فوراً كلّ هوائه المعوي. مغيظاً، طلب بعض المعلومات الإضافية: كيف بدأ كلّ هذا، كيف راودته فكرة بهذا القدر من الجنون ما أن انتهت الشروحات، حتى أفشى بفظاعة تشخيصه:

«هكتور، لقد غرقتَ ثانيةً!».

في بادئ الأمر، فكّر هكتور بحوض السباحة. ثمّ، أخرج رأسه من الماء ليدرك المعنى المجازي لكلمة «غرق ثانيةً». كان يحتاج إلى الصمت لكي يتحمّل النبأ المريع. تطابق كلّ شيء، وتشبّث كلّ جزءٍ من عاطفته الجديدة، لحظة بلحظة، بحياته السابقة. هذا الانبهار الفجائي بشيء، والرغبة العارمة في جمعه. هذا الانبهار الفجائي بلحظةٍ من زوجته، وهذه الرغبة العارمة في أن يعيشها مرّة أخرى. فنطق، مفصّلاً كلّ مقطع، هذه الحكمة: «أجمع اللحظات التي تنظف فيها زوجتي الزجاج.» ردّد هكتور هذه الجملة مائة واثنتي عشرة مرّة.

العَرق، الهيجان، كان يجمع لحظةً من زوجته. وتكرّرت صدمة البداهة. وكلّما كان يفكّر بذلك أكثر، كلّما تزايدت رغبته في عملية تنظيف مباغتة للزجاج. لقد أدمن على ذلك. حاول ألاّ يبكي، ولكن ما العمل لئلاّ يفكّر بهذا السؤال المخيف: هل يمكنه أن يكون رجلاً آخر؟ بلقائه بريجيت، ظنّ أنّه قد توصّل إلى روعة الواحديّة، إلى ستّ الستّات الفريدة في كلّ حركة من حركاتها، الفريدة في طريقتها الاستثنائية في عضعضة شفتيها، في تمرير يديها بين شعرها في الصباح، مع أناقتها ورشاقتها، ستّ الستّات الفريدة وهي تباعد بين فخذيها. ومع ذلك، ليس هناك ما يُفعَل، دائماً القذارة ذاتها، المعذّبة والعبثية، دائماً تلك الحياة الشبيهة بحياة دودة غائرة في أرضٍ خفيضة.

أعاره مارسيل منديله. وعده بأن يأخذه إلى «دوڤيل» ليطعمه بلح البحر. سيكون كلّ شيء أفضل حالاً. كادت فكرة بلح البحر أن تُجهِز عليه، ولكن بطريقة مباغتة، استعاد هكتور بعض الألوان. جعلته ذكرى التنظيف يُفرِج عن ابتسامة (تُغرةٌ في فمه). التوعّك الغريب هو أنّه يجد في علّته مصدره الأعظم للاستمتاع. متحوّلاً إلى مجموعة ذهنية، كانت لحظة تنظيف الزجاج تغدو إمكانيته في ألاّ يعيش حياةً مختثة (خلال جلسة للتحليل النفسي، قيل له بأنّه يسعى إلى قتل الأب). حينما كانت بريجيت تغسل الزجاج، كان ذلك بمثابة لازمة، اللازمة التي يغنّيها العشّاق تحت المطر. كان لعبثية حياته سحر

الشعار. إذاً، لم يكن سيّئ الحظ؛ كان يكفيه أن يفكّر ببساطة بسرّه. وكي يشعر بخير وجد الحل: عدم السعي إلى الشفاء! هكذا هو، ونقطة على السطر. أحبّ أعمال تنظيف الزجاج التي تقوم بها زوجته مثلما يحبّ آخرون الذهاب إلى المومسات وهم ينزّهون الكلب. كان سيشرع في حياةٍ خفيّة غامضة. بالطبع، كان هناك قسم لا يُستهان به من الخطر: تصوير امرأة حياته من دون علمها، وقد اعتبر ذلك أفضل لسلامة التدبير المنزلي.

كان مارسيل مولعاً بشراء الصحف حينما يستقلّ القطار؛ صُحف بسيطة تتحدّث عن وقائع مختلفة، عن أزياء الصيف وعن المشاهير. تحت مرفقه، كانت هناك أسبوعية يحمل غلافها **قضية حالات الاختفاء الغريبة**[11]. كانت قد اختطفت فتاتان في الحيّ ذاته من باريس. عُرِف كلّ شيء عن حياتهما، ولكن لم يكن هناك أيّ مُعطى عن الخاطف. اعتقد هكتور، المذهول تماماً بقراره، بأنّه سوف لن يعرف قطّ نشوة شخصيته. وصلنا أخيراً إلى مدينةٍ تشبه سان اتيان. وربحت لورانس مباراتها 23 مقابل 21. إنّها هادئة حينما تفوز.

(11) إذا كنّا نذكر قضية حالات الاختفاء هذه، فلأنّها ستكون لها أهميتها في حكايتنا. هنا، لا شيء زائداً أبداً، فلا نتحمل ذلك.

5

لم تلحظ بريجيت أيّ شيء، كانت الكاميرا على سريّة جديرة بفيلم وثائقيٍّ عن الحيوان. بدوره، تظاهر هكتور وكأنّ شيئاً لم يكنْ، الأمر الذي كان بمنتهى السهولة بما أنّ **التظاهر وكأنّ شيئاً لم يكن** هو السلوك الذي يأتيه في معظم تصرّفاته. مساء السبت، مارسا الحبّ محاولين أن يُنهكا نفسيهما قدر المستطاع لكي ينقضي يوم الأحد، الذي يصعب أحياناً تمضيته، في غفلة تعويضٍ جسديٍّ. أخيراً، كانا سيتصرّفان على نحوٍ أفضل لو امتنعا عن ذلك لأنّه قد وقع حادثٌ خطير (وغريبٌ بالنسبة لمن كانوا يعتبرون أنّ من الصعب تمضية يوم الأحد): كانت ميراي هي من تنادي بصوتٍ مرتعش، ظنّ هكتور بأنّ هناك مشكلة تخصّ الحساء، وفي النهاية، كان ذلك أخطر بكثير لأنّ تلك المكالمة الهاتفية أنبأت عن وفاة والده. «آه يا إلهي...»، تنهّد هكتور. وبعد ثلاث دقائق، لم يعد يشعر بأنّ الأمر جلل. اللهمّ عدا عن أنّه شعر ببعض القرقرات في المعدة، علامةً على أنّه كان جائعاً.

للموت مساوئه، إنّه يربك حياة الأصحّاء تاركاً لهم مَنْ لم يموتوا، كأمٍّ، على سبيل المثال. من الأفضل أن نموت دائماً جماعياً، سيكون ذلك كرحلةٍ منظّمة. لم يدرِ تماماً لماذا تعبر كلّ هذه الأفكار البذيئة ذهنه، ربّما كان ذلك من تأثير الموت، كان يقسو بضربةٍ من شخصٍ وحيد. لم يبكِ هكتور، ولكنّ بريجيت، الثاقبة البصر، أدركت أنّ حدثاً غير طبيعيٍّ قد وقع. اقتربت من زوجها الذي سرعان ما بدا كطفلٍ ووضعت يدها على خدّه.

«هل من خطب؟».

فكّر هكتور في تلك اللحظة، هل كان ذلك صدى لهذيانه الصلِف، بأنه سيستطيع الحصول على كلّ شيء من هذه المرأة. حينما يفقد المرء والده، كم تنظيف زجاج بوسعه أن يكسب؟

أرنست هو الأخ الكبير، فتكفّل باستقبال والدتهما. أمضى هكتور الليلة معهما. كذلك كانت هناك جوستين التي عادت إلى مسكن الزوجية، بعد أن جرّبت خوض حياة العزوبية. لقد قاما بدورهما في أزمتهما، ومن ثمّ ها قد نسيا كلّ شيء. فكّر هكتور في الحال بحكايته للحظّ المتحوّل. في ذهنه، كانت عودة جوستين تنبئ بالنهاية المقبلة لسعادته العذرية. دون أدنى شكّ: خيّم خطرٌ قدريّ على الشقيقين، لا يمكنهما أن يكونا سعيدين في الوقت ذاته (على الأقلّ، كان الأخوة كارامازوف الثلاثة مشتركين في الحزن). بين الأخوة، لا بدّ من التعاون. ماذا تقول يا رجل، لم يجعلهما موت والدهما يحزنا ولو لسنة

واحدة، وكان على السيّد أن يعتاد من جديد على جوستين. لكي يرتاح، ذهب واشترى مظروفاً من الحساء وأعدّه لوالدته. قد يرفع حساؤها اليومي من معنوياتها. ولكن في النهاية، لم يتحقّق ذلك. بينما كان الأخوان يحفّزان ميراي لكي تتغذّى قليلاً، على الأقلّ بما يساعدها إلى حين إتمام الدفن، وافقت ووجدت نفسها وجهاً لوجه مع اكتشافٍ أليم: كان الحساء المغلّف في المظروف لذيذاً. طيلة هذه السنوات، اشترت وغسلت وقشّرت اثني عشر مليوناً من الخضار المتنوّعة، لتدرك، في اللحظة التي مات فيها زوجها، أنّ شركتنا الحديثة تقدّم أنواعاً لذيذة ومحضّرة على نحوٍ ممتاز من الحساء. وقد أُصيبَت بإحباطٍ لم ينتهِ إلاّ بنهاية أنفاسها. انهار هكتور، وأضاف هذا الذنب إلى مجموع الذنوب التي عليه أن يتحمّلها بقية حياته.

في الأيام القليلة التي سبقت الدفن، دار هكتور كثيراً حول نفسه، وهو السلوك الذي بدأ يميزه. تكوّم في عمره وتَنبّه، للمرّة الأولى، بأنّ ليس له أولاد. حينما سيموت، مَن سيأتي ويطوف من حول قبره؟ من سيأتي ليرمي عليه الزهور؟ لا أحد؛ فدون ذريّة، تبقى القبور قبوراً، ولا تعرف أبداً تويجات الزهور الطرية. بدا لهكتور أنّه لطالما بحث عن سببٍ وجيه لإنجاب طفل، وأنّه قد وجد هذا السبب هنا، في حتمية وحدته المستقبلية. كان يغدو مسكيناً، متشبّثاً بمكاسبه الحيوية، وهو لا يُحَبُّ كثيراً في هذه اللحظات.

في أعقاب قراءة مقالة مخصّصة لأفضل الوضعيات في سبيل الإنجاب (الجانب الفاعل لهكتور، ميلٌ إلى الأشياء الفاعلة)، أخذ ببريجيت كما ينزو الحيوان. ظنّت أنّه كان في حاجةٍ لأن يتأكّد من موت أبيه من خلال المجامعة كيفما كان. حول هذه النقطة، لم تكن مخطئة تماماً. ولكن لم يكن من بين مشاريعها أن تحبَل. وبالتالي، حينما أدركت نوايا زوجها، اعترفت بأنّها غير مهيّأة للمضاجعة. وعرضت وضعية الكلب في الممارسة حتى تتعوّد بلطف.

هطل المطر في ذلك اليوم، كان ذلك نوعاً من عنوان، الموت دائماً عنوان. لن يبتدع المرء يوم مماته ولن يتبجّح به. مهما يكن من أمر، لا يزال ممدّداً كما هو. لرتدت النساء الأسود؛ وذكّرت الكعاب العالية المرحوم بتكتكة ساعة الحائط التي لن يعود يسمعها. جرت دموع الأمّ بهدوء. على وجهها، كان يمكن قراءة الحياة التي عاشتها، والحياة القصيرة التي بقيت لها أن تعيشها. وُضِعت لوحة صغيرة أمام القبر:

لقد أحبّ شاربيه كثيراً.

توقّف هكتور عند هذه الكلمة، الشاربين. يكمن والده في هذه الكلمة، يكمن موت والده في هذه الكلمة. شعر فجأة بالشاربين وكأنّها عبءٌ يُرفَع، كان الشعر يرتفع إلى السماء. لقد عاش على الدوام وسط القلق والعوز، مضغوطاً على الدوام في

ضيقِ صالونٍ مع ساعة حائطٍ ضخمة. فكّر بموت والده بالعبارة التالية: واختفى كلّ قلقه، كلّ المجموعات، كلّ الحاجات إلى الاحتماء دائماً؛ من أبٍ ميّت، لا يعود بوسع المرء أن ينتظر أيّ شيء. يغدو مسؤولاً عن قوقعته. رفع عينيه إلى السماء، دائماً الشاربين، وأمام السماء، ترصّع لوح زجاجٍ ضخم. لوح زجاجٍ ضخمٍ نظّفته بريجيت في الحال.

6

مثل امرأةٍ لا تُعرّى إلا جزئياً، انتظر هكتور أياماً عديدة قبل أن يشاهد الشريط المسجّل. كان قد رتّبه في زاوية هادئة من الصالون، والآن وقد دخل في مرحلة ما بعد الظهيرة، حيث لا يُرى ولا يُعرَف، كان بوسعه التفكير بجمع المصراع الثالث من مجموعته. مستعد جيّداً، والهاتف مفصول، سوف يتلذّذ هكتور بهذه اللحظة الممتعة. مباشرةً، شعر بشيءٍ غريب: كيف يمكننا القول، كانت تلك المرّة الأولى التي يشاهد فيها بريجيت بينما تعتقد أنّها لوحدها. لم يكن التغيير كبيراً بالنسبة لغير عارفٍ ببريجيت ولكنّ أيّ انحرافٍ في السلوك، مهما كان طفيفاً، كان يقفز إلى عيني هكتور. وجد أنّها متموضعة في مكانها بطريقة غير سويّة. كانت تلك مسألة مليمتر واحدٍ، مسافة طفيفة تافهة، ولكن في الفيديو المخفيّ، تمكّن من رؤية كلّ تحوّلات الزوجة المحبوبة. بالاختصار، تضايق وهو يشاهدها. لم تكن تجيد دورها. الأحرى، كان يمكن منحها دور ممثّلٍ صامتٍ في فيلم تلفزيونيٍّ إيطاليٍّ يُعرض عادة مساء الأحد. استدرك هكتور. بانتظار اللحظة المقدّرة، علّق لا

شعورياً على كلّ ما عدا تلك اللحظة. كان على بريجيت أن تنظف الزجاج، أو لا تنظفه.

ضغط هكتور على زرّ الإيقاف، وتأمّل في كلّ مليمترٍ من ربلة ساق بريجيت. باتت لديه فكرة، ارتجالٌ في السعادة: كان عليه أن يضع موسيقى لترافق الصور! فكّر في باري وايت، وبالطبع في موزارت، في البيتلز، في موسيقى فيلم **كار واش** (غسل السيارة)، وأخيراً، اختار أغنية ألمانية مشهورة جدّاً تشبه كلماتها إلى حدٍّ ما هذه الكلمات:

nanenaille, iche-nanenaille, nanenaille, iche-nanenaille

(ترجمة صوتية). حينما يصوّر المرء زوجته وهي تنظف الزجاج، لا يقتصد في التفاصيل. ينبغي أن يكون كلّ شيء ممتازاً. الشهوة الجسدية علمٌ فيزيائيّ فلذلك كل شخص لديه آينشتاين خاصته(آينشتاينه). بالنسبة له، كانت هذه الموسيقى الألمانية تستثيره. كانت بريجيت مدهشة؛ للمرّة الثالثة، يراها في كامل صفاء عرضها الأنثوي. لمرّات عديدة، أوقف الشريط المسجّل. اقتطفت عيناه، الفاغرتين واسعاً مثل فم قبيل العطس، كلّ جزيئةٍ من الفيلم. بات هكتور معلّقاً تماماً بعمليات التنظيف التي تقوم بها بريجيت حتى أنّه شعر بما يشبه عدم الرغبة في الإشباع (يصعب أحياناً ممارسة الحبّ مع امرأةٍ نحبّها كثيراً). كان لا يزال بالطبع قادراً على الإمساك بـ *carpe diem* زجاجٍ نظيف، ولكن ككلّ يهوديٍّ-مسيحيّ يقيم في باريس، خُدِعَ بإثمٍ على الضفّة اليسرى. لطالما كان للرغبة

المشبعة هذا اللون الخبيث لعهود التعاون مع العدو. شعر بأنّه قذر، فقد مات والده للتوّ وهو يستثير شهوته بوضاعة. لم تكن حياته برمّتها سوى مهزلةٍ، كان رديئاً يعلو الخجل وجهه. تعثّر الخجل على وجهه.

حينئذٍ.

نعم، حينئذٍ توقّف الجهاز إذ إنّ بريجيت نزلت عن المرقاة وخرجت من الإطار. كانت الصورة التالية عودة بريجيت، ولكن هذه المرّة، برفقة رجل. نعم، رجل! كاد هكتور أن يختنق، مع أن فمه كان فارغاً من أي طعام أو شراب، لم يتوفّر له الوقت ليضغط على زرّ الإيقاف؛ وغالباً ما تبدأ المآسي الكبرى لحيواتنا بهذه الطريقة. تحادث الرجل والمرأة (نعم، اصبحت بريجيت «المرأة»، الشعور المفاجئ بمعرفتها على نحوٍ أقلّ) لبضع ثوانٍ، وفاهما قريبن، قريبن جدّاً، الفمان القذران. بسبب أغنية nanenaille, iche-nanenaille, nanenaille iche-nanenaille، لم يكن من الممكن سماع ما كانا يقولانه لبعضهما. تبيّن ما يشبه جوّاً غامضاً جديداً في جوّ الخيانة الجسدية ذاك. ولكن، لكونه بالتأكيد قليل الميل للسينما، تحوّل الرجل إلى حيوان، أنزل سرواله، وباعد ما بين فخذي بريجيت، تمّ كلّ شيء، إنّه رقمٌ قياسيٌّ، في أقلّ من اثنتي عشرة ثانية.

قف (أوقف هكتور الشريط المسجّل)

للوهلة الأولى، لم يمعن التفكير، فكّر بأن يرمي بنفسه من النافذة، فكّر بجسد الرجل الآخر، فكّر باللحظة التي اهتزّ فيها

فوق بريجيت. لم يترك لها الدنيء حتى الوقت الكافي لتنظيف الزجاج؛ في كلّ الأحوال، هذا منحرفٌ. والقول بأنّه كان مع صديقٍ لحضور مباراة كرة طاولة؛ لطالما احتقر هذه الرياضة الدنيئة، رياضةٌ ابتُكِرَت لتجعل الرجال مخدوعين. كانت تفوح من جسد بريجيت المدنّس بعد ظهر يوم سبت رائحة خيانتها مع «شيئ» ريفي تافه، وإذا ما وجِد ذلك، كان لا بدّ أن تكون على صلةٍ عائليةٍ مع ذلك الشيء الذكوريّ، خدعة قرابية ستجعل من هذه المسألة المقزّزة مسألة مهينة للإنسانية. كان عليه أن يتنفّس ليستعيد زمام الأمور، واستعادة زمام الأمور تعني البحث عن ذلك المهووس لكسر رقبته. فقط، لم يكن خبيراً في العنف؛ لقد نازع أحياناً في سبيل أمور عدة، ولكنّه لم يتجاوز قط المرحلة المقدّرة للاعتداء الجسدي. تصبّب عرقاً بارداً لتذكّره الظهر المشعِر للرجل المجهول، الظهر العريض مثل فكّ سمكة قرش، كانت تخونه مع إنسان نياندرتال خاصّة السبت. نهش التخاذل المحتمل لفعله المستقبلي في دماغه الفزِع. ثمّة على الأرجح حلولٌ أخرى، فكّر في تجنيد قاتلٍ، وسيلة خاصّة واحترافية، رصاصة في العنق، وهنا، سيبدي مهارة أقلّ مع آلته الأبدية *(ad vitam)* شبه البلهاء، لآلته القذرة التي اكتشفت السحر الداخلي لبريجيت.

لكن بصراحة، أين يوجد قاتل مناسب في يوم جمعة في عزّ ما بعد الظهر؟ خشي من أن يُقدَّمَ له متمرّن قد ينسى حَرق اسم المُكَلِّف قبل أن يضغط على الزناد غير المزيّت.

لم يكن هكتور قد قرأ «آراغون»، وفي النهاية لا نحتاج إلى قراءة «آراغون» لنعرف بأنّ الشهوة الجنسية ديكتاتورية. الاستعباد بامتياز الذي لا يمكن للمرء قهره إلاّ بقهر ذاته. وبالتالي، تغدو أفكار العثور على قاتل، وأفكار محاولة إظهار رجولته سخريات مفرحة، حينما يلامس المرء، للحظة وحيدة وقاسية، السعادة. التخلّي عن بريجيت سوف يعني في النهاية أنّهما لن يعودا يلتقيان؛ وأن لا يعودا يلتقيان سيعني في النهاية أنّه سوف لن يحضر عمليات تنظيف الزجاج. كان ذكاؤه المنتعش بالصدمة المريعة التي عاشها يجرّنا إلى حقائق ملموسة بديهية. ومن هذه البديهيات نتجت حقيقة وحيدة: استحالة الحديث على ما جرى لبريجيت. كان عليه أن يحافظ بأيّ ثمنٍ كان على مجموعة «تنظيف الزجاج» وألاّ يعرّض أيّ شيء للخطر، مع احتمال أن يتحوّل إلى رجلٍ جبان. أن يكون جباناً، نعم، ولكن في سبيل اللذّة. قد يُرى في ذلك رذيلةٌ، مع أنّ كلّ شبقٍ هو دائماً رذيلة أخرى. على الساديين المازوشيين أن يحكموا بالرذيلة على العشّاق المبشّرين. كان هكتور واقعاً في فخّ لذّته الجنسية. فلم يكن له خيار، وحينما ستعود بريجيت في المساء، سينظر مباشرةً في عينيها، وسيبذل أجمل ابتساماته، الابتسامة التي أظهرها يوم الزواج.

كان يحبّها كثيراً، تلك الابتسامة.

القسم الثالث

نمطٌ من الانحدار

1

ليس هناك ما هو أكثر حماقةً من البقاء مع امرأةٍ تخونك لتراها وهي تنظف الزجاج، سوى القيام بجولة حول الكرة الأرضية فقط لكي ترى للحظةٍ جمال شحمة أذن تلك المرأة، والانتحار مثل روميو وجوليت (في كلّ الأحوال، لا بدّ أن جوليت تلك كانت بطلة في تنظيف الزجاج)، والذهاب لقطاف زهرة البرسيّة المفضّلة لديها، والسفر إلى جنيف ليومٍ واحدٍ فقط بحثاً عن فندق ريتز غير الموجود، والحاجة إلى عيش الفقاعات الشهوانية، وأن تحبّ نفسك بهذه الطريقة في التشبّه بشاربين ستالين، كلّ هذا سيّان، وبالتالي لم يكن على هكتور أن يشعر بأنّه آثمٌ بانحرافه الشهوانيّ البسيط. لكلٍّ مصيبته في الحبّ. مع ذلك، فإنّ إيهام امرأةٍ بأننا لا ندري بأنّها تخوننا يُمهِّد لهدوء التدبير المنزلي.

بعد العصر الذي أمضاه، لم يمانع هكتور في الخلود إلى الكذب بعض الشيء. لم يعد بوسعه أن ينظر إليها كليّاً كما من قبل؛ بالاختصار، بل أسوأ من ذلك بكثير، لكونه يمتلك رؤية

ثابتة للعاشق. حينما كان ينظر إلى زوجته، كان يرى امرأة يضمّها رجلٌ فظٌّ ذو رأسٍ تشيكيٍّ ضخم. ولأنّه كان هناك فيلمٌ جميل يُعرَض على التلفاز في ذلك المساء، مرّ الأمر بسلام. كان هكتور في الأريكة، الأريكة مريحة، مثل طفلٍ تمّ تبنّيه حديثاً، وتقاسم مع بريجيت لحظة من الأمركة اللطيفة. وجدت بريجيت سلوك هكتور غريباً. حاولت أن تعرف ما به، وبالطبع، ردّد، كما هي العادة أثناء حالات رعبٍ مفاجئة، مراراً كلمتي «لا شيء، لا شيء» اللتين، لا بدّ من القول، دوّتا على نحوٍ مثيرٍ للشفقة. يائساً، ألقى نظرة خاطفة على الزجاج، وتأمّل النظافة المخيّبة للأمل؛ ستكون أمامه عدّة أيام، ربّما عدّة أسابيع، للانتظار تحت ضغط عرق رجلٍ آخر. كذب قائلاً إنّه يعاني من صداع (كانت تلك المرّة الثالثة التي يستخدم فيها نفس العذر ذلك المساء) ومن جديد، أذابت بريجيت حبّتي أسبرين في كأس ماء. كانت تلك الحبّة السادسة التي يتناولها في السهرة، وهذه المرّة، بدأ يشعر ببداية صداع.

منهجياً، تفتح ليالي الجُمَعة على صباحات السبت (ليست هناك أيّ قدرة على مباغتتنا). ويوم السبت السابق، قبل أسبوع، كانت بريجيت تخون هكتور في الظروف الفظيعة التي نعرفها. وكأنّها صدفة، هذا الصباح، ما إن أيقظها المنبّه، سألت زوجها عن برنامجه (بدت زانيته وكأنّها مضبوطة تماماً مثل ساعة حائط سويسرية). هل فكّر صراحة بأن يكون لديه برنامج؟ لم يكن لدى هكتور قط أيّ شيءٍ يُفتَرَض به القيام به،

لا سيما في الأيام التي سعت زوجته فيها للاستعلام بقصد المجامعة حينما يدير لها ظهره ضمن برنامج عمله.

«ليس لدي أيّ شيء يُفتَرَض بي القيام به... وأنتِ؟».

لا بدّ أنّه كان مغتاظاً جداً، ليردّ بهذه الطريقة. ولكن لم يرف للسيّدة جفنٌ، لا شيء، لم تعرَق (بينما هو، في هكذا حالة، سيكون قد رفع ذراعه اليسرى ليتجنّب جلطةً)، النساء فاتنات، النسّاء فاتنات، إن كنّ يكذبن أو يقلن الحقيقة. كان على بريجيت إذاً أن تتبضّع ومن ثمّ، في نهاية ما بعد الظهر، من الساعة الخامسة حتى السابعة، ستقابل شقيقها. كان جيرار شمّاعة، ما عساها أن تفعل معه ذات سبتٍ بعد الظهر؟ كلاّ، لم يكن ذلك ممكناً، لا أحد يقابل شقيقه في ذلك اليوم. الأخوة يتقابلون بشكلٍ خاصّ ظهر يوم الثلاثاء. تدفق الدم سريعاً في عروق هكتور. دخل مباشرةً في رجفة الكرامة التي يعرفها جيّداً كلّ زوج مخدوع. أراد السيّد ألاّ يفعل أيّ شيء، وأن ينتظر بلطف عملية التنظيف القادمة للزجاج؛ ولكن حينما سمع السيّد زوجته وهي تعرض له استخدامها للوقت ككاذبة مزدرية، حينها أراد أن يطردها. الرجال أصغر من قراراتهم: لم يصمد لنصف نهار. ما كادت بريجيت تغادر شقّتهما الجميلة جدّاً، حتى رفع هكتور السماعة ليتّصل بشقيقها الذي خرجت بحجّته. أكّد الشريك ذلك، بالطبع. كيف استطاع أن يصدّق للحظة بأنّه سوف يتركها؟ العائلات تخفي دائماً الزناة في الأقبية، إنّهم يهود الحبّ. ظاهرياً كان عذرها مقبولاً، كان عليهما أن يشتريا هديّة بمناسبة عيد زواج والديهما. القذران،

كانا متورّطين أيضاً. لا بدّ أن العائلة كلّها كانت تغرق في الضحك من وراء ظهره، كانت أذناه تصفّران كقطارٍ على الحدود السويسرية. كان عليه أن يرتاب في الأمر، يا له من أبله! لحسن الحظّ، أُصيب بشغفٍ بتنظيف زوجته للزجاج؛ فدون هذه الفرصة، ما كان ليعرف قط أيّ شيءٍ عن المؤامرة العائلية التي كانت تُدبَّر من حوله. الآن، عليه أن يكون يقظاً جدّاً، وأن يفكّر، لما لا، بنصب كاميراتٍ أخرى.

إذا كان هكتور قد اتّصل بجيرار، فقد اضطرّ لأن يجد ذريعة لهذا الاتّصال. لم يكن جيرار ذلك الرجل الذي يتمّ الاتصال به هكذا، كان لا بدّ من سبب ملموس. بغلاظة، ومذعوراً، لم يجد هكتور أيّ سببٍ سوى أن يقترح عليه القيام بجولةٍ على الدرّاجة في نهاية ما بعد الظهر. بمباغتته بالمشاعر، لربّما ينهار. كما نعلم، كان قد أكّد، برباطة جأشٍ مفاجئة رغم توتّره كدرّاج، حجّة أخته. في المقابل، لم يكن قد حدّد الضرر الجانبيّ لهكذا هجوم. اقترح جيرار، بمزاجٍ رائقٍ جدّاً، القيام بجولة على الدراجات في الحال؛ هذا صحيح، لماذا نؤجّل عمل اليوم إلى الغد؟ إنّه أبله حقّاً جيرار هذا (الآن وقد أخفق الزواج، لن يعود هكتور ينتشي على درّاجات نسيبه، وعلى هذا السباق للمرؤوسين المساعدين المغاربة الذي فاز به أوّل درّاج أوروبيّ مستهلكٍ للمنشّطات)، ولكن لأنّه أبله كانت كتلته العضلية تتناسب عكسياً مع الكتلة العصبية، كان عليه ألاّ يخالفه الرأي. اضطرّ هكتور أن يرتدي سروالاً قصيراً، وأضفى عليه

ذلك مظهرَ مرشّحٍ يمينيٍّ للانتخابات البلدية. نظر إلى نفسه في المرآة ليجد نفسه نحيلاً، لم تكن هناك حاجة للاقتراب منها لملاحظة نتوءات بعض عظامه.

قبّله جيرار، فهو من العائلة. أحيّيك بحرارة، أضاف بقصد حسن الترحيب. نزلا فوراً إلى القبو وأخذا درّاجة الصديق التي سيستخدمها هكتور، دراجة سوف يتبيّن أنّ عجلاتها غير منفوخة جيّداً تحاشياً لأن يتحوّل الصديق إلى منافسٍ محتَملٍ. على السلالم، صادفا جاراً مبتسماً؛ وإذا كان جيرار في العادة حسن المعشر باستمرار، فقد جرى ذلك التصادف في جفاءٍ محيِّر (مصافحة سريعة). ربّما كان يحبّ ركوب الدرّاجة مع نسيبه ولكن أن يتعدّى ذلك إلى تعظيم جار، لم يكن ذلك لائقاً جدّاً. حظي هكتور بالوقت الكافي ليلمح شيئاً من الحيرة في نظرة الجار، ولكنّه ترك ذلك الإحساس يفوته حينذاك. بعد ذلك بقليل، عندما باتت غابة ڤانسان أشبه بمضمار لكثرة ما دار من حولها، تملّكه شعورٌ مزدوج:

1- لا ريب أنّ هذا الجار صديقٌ لجيرار الذي تظاهر بعدم معرفته.

2- إذا كان الشعور الثاني أكثر شيوعاً، بدا أنّه في طريقه إلى أن يتضّح. أحسّ هكتور بأنّه سبق وأن رأى هذا الرجل، ولكنّه لم يأتِ قط إلى بيت نسيبه قبل حكاية التأكّد من الحجّة هذه. أيكون رجلاً مشهوراً؟ كلاّ، لا يُستخفُّ بالأشخاص

المشهورين على السلالم. نظرته اللازوردية، تلك النظرة كان يعرفها، يعرفها من جراء رؤيتها مرّات عديدة... ورزازات- الدار البيضاء! كان أحد درّاجي المنصّة!

واصلا السير، نظر هكتور إلى ساعته: لقد مضى ما يقارب اثنتي عشرة دقيقة وهما يركبان الدرّاجتين. لماذا يبدو الوقت بطيئاً جدّاً على الدرّاجة؟ إنّها الرياضة المثالية لكلّ من يعتقد بأن الحياة تمضي بسرعة كبيرة. تُشبَع السيقان والأفخاذ العاملة بالهواء، تساءَل لماذا يظلّ جيرار مغفّلاً جدّاً. حينذاك، بطريقة ذكيّة جدّاً، تظاهر (بطلنا) هكتور بتوعّكٍ وتوقّف على قارعة الطريق. كمحترفٍ كبير في الطبّ الرياضي، وجّه جيرار سلسلة من الصفعات المقويّة لإنعاش المحتضر.

«إن أردت المتابعة، هيّا، أنا سأتوقّف»، قال هكتور منهاراً.

عزا مسؤولية هذا التوعّك إلى افتقاره للتدريب. إذ لم يقم بممارسة الرياضة منذ 1981، منذ أن شارك مثل الجميع في مسيرة الاحتفال بفوز فرانسوا ميتران؛ حينذاك، كان فرانسوا ميتران قد مات جرّاء مرضٍ عضال أخفي لزمنٍ طويل عن الفرنسيين، وهو لم يحظَ على الدوام بالفرصة الملموسة للعودة إلى ممارسة الرياضة. سرعان ما تغلّبت الدرّاجة على كرة الطاولة في قائمة رياضاته المحتَقرة. بدا جيرار منزعجاً جدّاً لأنّ فكرة العائلة، بالنسبة له، مقدّسة كقداسة ملكٍ؛ لم يكن له الحقّ في ترك فردٍ من العائلة على قارعة الطرقات، كان ذلك

محرّماً في شرائع ديانته. ولكن لأنّ ربّه الأساسي هو الدرّاجة، انطلق في عدّة دورات بمفرده. راح هكتور وجلس على مقعدٍ ليستعيد قواه، وعلى ذلك المقعد راودته هذه الفكرة المكيافيلية: إخبار جيرار. كان كلٌّ لذاته، وإذا ما توحّدت كلّ عائلة بريجيت ضدّه، كان عليه أن يستخدم الأسلحة التي يمتلكها، بما فيها أكثرها دناءةً، الوشاية. كان يدافع عن مصالحه مثل أوّل دابةٍ يؤتى بها في زمن الحرب. ومع ذلك سوف لن يُخدَش بقذارة ويموت من الغيث دون أن يرى ثانيةً تنظيف الزجاج أبداً.

بعد ثلاثة أرباع الساعة من الجهود، عاد جيرار بالكاد لاهثاً. صعد، كما لو أنه لم ينزل أبداً؛ حتى أنّه كان باستطاعة البابين المروحين لحانة «فانسان»، لصاحبها «كوالسكي»، أن يشهدا على تلك المقدرة على النزول. كان يلزمه الحدّ الأدنى من الذكاء لكي يكذب، فجيرار لم يكن ذكياً كفاية. إذلم يفكّر عليالأقل، بأن يشتري لنفسه علكة كي يزيل رائحة المشروب. أرجع هكتور لبضعة سنتيمترات نَفَسَه ليتمكّن من متابعة مآثر نسيبه. قاطعه على الفور:

«أعرف أنّك لم تفز بسباق ورزازات-الدار البيضاء.

- . . .

- وإن لم تخبرني مَنْ ستقابل أختك هذا المساء في الساعة الخامسة، سأكشف كلّ شيء لعائلتك. . . ولكلّ أصدقائك السكّيرين!

- . . .»

إذا كان جيرار مولعاً بالكذب بعض الشيء، فقد اتّفق الجميع على اعتباره لطيفاً. لم يكن من عادته أن يُهاجَم (كان قد سبق له أن جادَلَ حول هذا السباق، ولكنّ الأمر سويَّ منذ أمدٍ طويل، وطُمِرَ، في ذهنه؛ طبعاً، الأكاذيب بحاجة إلى نورٍ ساطعٍ يكشفها ولذا تعطّلت مقدرته على الردّ للحظة. هنالك مثلٌ يتحدّث عن الهدوء الذي يسبق العاصفة، ما كاد أن يسلّم بما قد سمعه، حتى انقضّ بعنف على هكتور. حطم اثنتين من أسنانه، ثمّ توقّف:

«الأفضل تسوية هذا الأمر في بيتي!».

سعى هكتور بكلّ الوسائل الممكنة لكي يستدرك قوله، ولكنّه كان قد ضرب العصب الحسّاس لجيرار. كانت ورزازات-الدار البيضاء كلّ حياته؛ الهضبة التي قضى فوقها أيامه. لم يكن من الممكن إجراء أيّ تفاوض؛ ثلاث حركات في زمنين، التقت العيّنتان من العائلة في قبو جيرار. في وقت مبكرٍ من النهار، حينما جاءا بحثاً عن درّاجة الصديق في هذا القبو ذاته، لم يلحظ هكتور الإعلان الكبير لفيلم **صمت الحملان**. فجأةً، راودت ذاكرته ومضةٌ للحظة، تذكّرٌ مبهمٌ لحديث عارفٍ دعيٍّ بالسينما حيث فاضت عينا جيرار عملياً بالدموع وهو يتذكّر المشاهد المحجوبة من فيلمه المفضّل.

2

في ذلك المدى القريب من الاحتضار، فكّر هكتور من جديد بتلك اللحظات التي أنقذه الجسد فيها من اللانهاية المماثلة لحياته. تبعثرت التفاصيل التي لا تُنسى رغم كلّ شيء لأولى لحظات حبّه لبريجيت في بخار رغبةٍ مطلقة، طاغية مباغتة. بينما لم يعد تقريباً يحسّ بالضربات التي وجّهها إليه جيرار (توجد مرحلة غريبة يتوحّد الألم فيها بالشبق)، تحوّل الدم في فمه إلى منتَجٍ منظِّفٍ للزجاج. لم يتوسّل، لم يقل شيئاً. مربوطاً مثل شريحة جانبون مهرّبة، انتظر الموت بهدوء على رصيفٍ، مع أمل أنّه لن يتأخّر كالمرّة السابقة. طبعاً، سوف لن يموت؛ فإذا كان جيرار على شيءٍ من الخبرة في مجال القسوة المفرطة، كان يدري، وهذا بفضل معارفه في مجال السينما، بأنّ عليه أن يخيف كثيراً الخائن السافل الذي كان يهدّد بالفضيحة. فنوى أن يوقف لكماته ما أن يسمع الوعد الأبدي بالصمت الأبدي لضحيّته. ولكن بدل ذلك الصمت، كان أمام ابتسامةٍ. كان هكتور، الغارق في نشوةٍ عدّها الجلاد منحرفة، يكتشف لذّة شبه مازوشية. لم يفهم جيرار: في

صمت الحملان، لم تكن الضحية تبتسم؛ حسناً، اتّفقنا، كانت تُقطَّع، ولكن مع ما وازنه (آلمته قبضتا يديه)، بدا له ذلك الصهر المبتسم ملء شدقيه رؤيا مهلوسة. سرعان ما أخذ جيرار يرتجف أمام الشخص الذي كان يعذّبه. وبعد دقيقةٍ من ذلك، ارتمى على ركبتيه:

- «نعم، هذا صحيح... لم أفز قط بسباق ورزازات- الدار البيضاء! المعذرة! المعذرة!».

عاد هكتور من رحلته الشبقية. سرعان ما فرض ألم اللكمات نفسه على كلّ أنحاء جسمه، وعد بألاّ يقول شيئاً لأحد؛ على كلّ حال، لم يعد واثقاً حتى من أنّه لا يزال يملك لساناً قادراً على صوغ الكلمات. حاول أن ينهض، وساعده جيرار في ذلك. ضايقهما عدم فهم كبير لما عاشاه. واجه الصراعُ اللطيفين، كان كلاهما معتدىً عليه في ما هو حسّاس لديهما: المجد المحتَمل لأحدهما، والقدرة الجنسية للآخر. لطيفان وقعا في فخّ الطموح إلى أن يحافظا على كآبة حياتهما، مهما كلّف الثمن.

على هذه النقطة المشتركة، تعانقا.

عاد هكتور إلى بيته سيراً على الأقدام، وهو يرى بصورة مشوّشة معالم جغرافية على غير هدى. كان الناس ينظرون إليه في الشارع، الأمر الذي لم يحدث له منذ يوم انتحاره؛ فاستطاع أن يصنّف قطعياً هذا اليوم في عداد قائمة الجوائز المضادة لأمجاده. دخل إلى صيدلية لشراء ما يطهّر به جراحه،

ولصق بعض الضمادات على وجهه. أرغمته الجروح العديدة على أن يغطّي كامل وجهه تقريباً. لدى مروره، سمع صوتاً يقارنه بالرجل الخفيّ. كان ذلك غباءً، لا يمكن للمرء أن يشبه الرجل الخفيّ، لأنّ لا أحد أبداً قد رأى الرجل الخفيّ.

في أسفل عمارته، أشعل هكتور سيجارةً وسط الدهشة الكبيرة لرئتيه. دخّن كشخصٍ بالغ، مبتلعاً نفثات من الدخان. بعد السيجارة، ما لم تقع أيّ امرأة من السماء، بوسع المرء أن يسعى لمواصلة العيش بشكلٍ طبيعيّ. استعادت أفكاره شكلاً منسجماً في تسلسلها. ندم على رغبته في ابتزاز الدرّاج. كان كلّ شيء سيكون أكثر بساطةً لو أنّ النساء اللواتي نحبّ لم ينظفن الزجاج. فائضاً بالحبّ، سيستسلم لذلك الانحراف الجنسيّ، وربّما سيُصفِح. هل سيكونان قد ذهبا لرؤية طبيبٍ نفسانيّ من أجل الزوجين الأعرجين؟ ربّما سيروي لماذا نحتاج كثيراً لأجسادٍ أخرى للتقدّم، لماذا نكون من أكلَة اللحوم متغذّيين من لحم غريب. ربّما سيجلسان على أريكة، وقد يكون الطبيب قدّ أراد أن يقابل كلاً منهما على حدة أيضاً. بهدف المقارنة، وتطويق المشكلة، وفهم سبب معاناة زوجة هكتور، المرأة المثيرة دون أن تفعل شيئاً، والحاجة إلى أن تُؤخَذ واقفة في الصالون العائلي. كان هناك بالتأكيد سببٌ لذلك.

عاد هكتور إلى رشده من ألمه. لم يصدّق بأنّه قد عاد هكذا

إلى الفترات المشهودة لأزمنته الرديئة. كيف استطاع القبول بإذلالٍ كهذا؟ تنظيف الزجاج مسألة عظيمة، ولكن هل كان له الحقّ في أن ينحدر إلى هذه الدرجة؟ كما في أعظم لحظة من التجميع، حطّم كرامته من أجل غرض. كانت مشكلته تكمن تماماً هنا، لم يكن يحترم نفسه أكثر من شيء غرض. لم يكن غرضاً، وفي اللحظة التي فكّر فيها بهذه الفكرة مرّ أمام مرآةٍ ليتذكّر جيّداً مدى شبهه بالرجل الخفي. أنا غرض، فكّر. لكي يشفى، ربّما كان عليه أن يحاول جمع نفسه! أراد أن يبتسم ولكن ابتسامته كانت حبيسة العُصيبات المطهِّرة. لم يشأ أن يعود إلى بيته؛ نظر إن كان هناك إضاءة. كلاّ، لا أحد. ربّما كانت زوجته في نشوة جماعٍ في تلك اللحظة.

لم يعد هكتور يذرف الدمع.

بعيداً عن النشوة الافتراضية لزوجته، انزلق هكتور على كتلة طريّة ومُعطّرة. ثمّة الكثير من الكلاب في ذلك الحيّ شبه الصيني. توقّف أربعة فضوليين متسكّعين رائعين أمام هاوي التزلّج غير الفنّي، لا لمساعدته على النهوض، وإنّما للتحسّر جماعياً على تفويتهم لرؤية سقوطٍ كذاك. نهض، يتملّكه الخوف أكثر من الألم، مثلما يُقال؛ ولكن غالباً ننسى أنّ **الخوف** هو عظمة صغيرة جدّاً تقع قرب الورك. في ما بعد، حينما سيكون في عيادة الطبيب، في نهاية ما بعد ظهر الثلاثاء القادم، سوف يحاول الدكتور سيمور أن يستقبلك بين موعدين

قالت دولوريس المسعفة المناوبة، لأنّه قد أصرّ على مقابلة ذلك الطبيب المختصّ بالتصوير الإشعاعيّ، سوف يؤكّد له مسّاً من الخوف.

مرّ أسبوع على كونه مخدوع رسمياً. حقّ له أن ينوي ما يشاء. حقّ له حتى الاحتفال بذلك اللقب المجيد. الكثير من الرجال سيحلمون بأن يكونوا مخدوعين، فقط ليتمكّنوا من أن يخدعوا بدورهم، دون أن يشعروا في النهاية بالذنب. حكماً، كان يطابق نظرياته المفاجئة على حالته المستقبلية الزُهدية. لم يكن هناك أدنى شكّ حول هكذا مصيرٍ لأنّه كان يقول إنّ النساء أكثر كمالاً بكثير من الرجال. سوف تهجره، إذاً. وسوف لن يعود بعد ذلك شيئاً سوى رجل مهجور. كانت فكرة السرير الفارغ التي ترتسم في ذهنه تخنقه. سوف ترحل حبيبته وتترك الملاءات باردة. وستكونُ القهوة أيضاً باردةً إلى الأبد (ولكن كيف تُعدُّ القهوة؟). سوف يمضي نهاراته أمام التلفاز، وسوف تحمل منامته بُقعاً لا تُمحى. سوف ينسى أنّه، هو الآخر، كان رجلاً قادراً على أن يحلق ذقنه في الصباح. ثمّ كلاّ، لم يكن ذلك ممكناً! رفض مصير الورع المحبِط ذاك؛ واضطرّ لأن يتأمّل حياته بمزيدٍ من الطموح. سوف يغيّر، عليه أن يغيِّر! بالحبّ، شعر بأنّه مستعدٌّ لعمليات غسل. سوف يتسامح مع الجسد المشعر لذاك الرجل الآخر، الجسد السعيد لذلك الدماغ العبثيّ الآخر. سوف يتسامح مع تسكّع اللحم وتيهانه، مع ضرورات الاندماج كيفما كان في سبيل البقاء! كان كل واحد

يعرف معنى انحرافاته. وبالتالي، لا بدّ من القبول دون الكثير من السعي إلى فهم ذلك.

أن يباغتها، لم يرَ أيّة إستراتيجية أخرى لاستعادة زوجته. أن يفتح لها العينين اندهاشاً. فكّر أن يستقبلها بعشاءٍ فاخر، هي التي ستعود مليئةً بعرقٍ غريب. كان بوسعه أيضاً أن يعالج الزانية بالحبّ. أحبّت شُواء لورانس، في المرّة السابقة. لسوء الحظّ، توقّف قراره عند نيّته، لأنّه لم يكن قادراً على إعداد أيّ شيءٍ ذلك المساء. سيصحبها إذاً إلى المطعم، وللاحتفال بذلك الخروج المفاجئ بطريقة لا تُصدّق، سوف تلفّ جسدها بثوب أميرة. ستكون السعادة، سوف تكون هناك في المطعم شمعدانات ستُغرِقُ في الجوّ نصف المعتم عيوبَ الزوجين الفاقعة. تلك الفكرة عن المساء الذي سيبدأ فيه كلّ شيء من جديد رفعت معنويات هكتور التي كان يُعتَقَدُ بأنّها ميّتة. دخل إلى عمارته، ناسياً إلى أيّ درجة لم يكن في ذروة مظهره الجسدي. كانت رائحة التغوّط الكلبي تفوح بشدّة بحيث حقّ للمرء أن يتساءَل عمّا قد أكله ذلك الكلب.

لحسن حظّه، لم يصادف أحداً على الدرج.

لسوء حظّه، لدى دخوله إلى بيته فاقداً صوابه، باغت كلّ الذين كانوا يسعون إلى مباغتته منذ أكثر من ساعة مضت، والذين، مع ذلك الفنّ الرائع للصياح، أخذوا يهتفون: «عيدُ ميلادٍ سعيد!» تعرّف على مارسيل وبريجيت وأرنست والآخرين. لا بدّ أنّه حقّاً مغفّل ليكون قد ولِد في ذلك اليوم.

3

كان هكتور بالضبط من نمط الرجل الذي لا يُطيق أن تُنظّم له حفلات عيد ميلاد؛ في رأيه، لم يكن ذلك سوى مكيدة. كانوا قد اتّفقوا من وراء ظهره، ورتّبوا المفاجأة مثلما أثار آخرون خيانات. دون الأخذ في الحسبان بأنّه لم يساعدهم بمبادرته المباغتة: الذهاب لركوب الدرّاجة مع جيرار، يا لها من فكرة! ارتعب الأصحاب بعض الشيء؛ ولكنّهم استعادوا توازنهم كمنظّمين للمفاجأة (كمحترفين حقيقيين). لم يكن يعرف حتى كم هو عمره. كل أولئك الناس الذين كانوا على مزاج غريب اعدّوا طبعاً قالباً من الحلوى سوف يذكّره بذلك بالتأكيد. وهذا هو سبب حضورهم جميعاً، للاحتفال بالعدّ العكسي، لتكديس شبابه الزائف في كريما الشانتيّي. مع رأسه المضمّد، أصبح الجوّ كئيباً. تساءل الحضور عمّا أصابه. أحسّ هكتور بأنّ اليوم الذي سيقابل فيه كل الأشخاص الذين يعرفهم، سيكون منظره، مرعباً. كانت هنالك إشارة صريحة إلى حياةٍ اجتماعية مخفقة. مع ذلك، كان ذلك الهبوط في المعنويات الجماعية عابراً. حينما نعدُّ عيدَ ميلادٍ مفاجئ،

نضطرُّ لأن نتظاهر بأننا على مزاج رائق (لا بدّ أن يكون المرء مدعوّاً ليكون له الحقّ في الكلام). شعر الجميع بمسؤوليتهم عن توجيه هذه الإهانة لهكتور. فاستسلموا لابتساماتهم المنافقة. غير محبطين، انطلق الأصدقاء والعائلة في الأغنية التقليدية. هنا، لا مفاجأة أبداً، إذ دائماً تُغنّى أغنية « سنة حلوة يا جميل. . . ».

كما الحال غالباً (وهذه عادة سيئة)، أراد هكتور أن يموت في الحال. كان العار الذي ألحقه به الجميع كبير جدّاً. هو الذي قرّر أن يغيّر، هو الذي قرّر أن يتحمّل الشبق المتولّد عن معشوقته، ها هو يُسحَق ظُلماً في محاولته لأن يصبح رجلاً يشعر بالمسؤولية. كان الجميع يتلاعبون معه، دائماً وأبداً. بدءاً بوالديه اللذين قرّرا إنجابه إلى الدنيا للانتقام من رحيل شقيقه. إذ لا يُنجب المرء طفلين بفارق عشرين عاماً، ليس له الحقّ في ذلك. . . لم يتحرّك، ظلّ جامداً وسط تعكّر مزاجه من كونه هو. في تلك اللحظة، كان ليعطي كلّ شيء لكي يمتلك في كلّ مكانٍ أجهزةً واقية، مجموعات واسعة من الطوابع أو من عيدان المقبلات التي ستخفيه عن أعين الجميع. وكانت زوجته بريجيت وسطهم. لم تكن إذاً مع عشيقها؛ لا تزال تحبّه بعض الشيء. كان ذلك الشعور غامضاً، فارقاً زهيداً، ومع ذلك، شعر بالصدى العذب للأمل: لا تزال تحبّه. . . فضّلت عيد ميلاده على النشاط الجسدي مع رجلٍ آخر. أخيراً، لم يكن من العبث أن يولَد ذات يوم، وأن يحتفل

بذاك اليوم. كانت تحبّه... على هذا النذر اليسير من الحبّ المتبقّي، أراد أن يعيش مستقبله مثل غريقٍ على جزيرة مهجورة.

اقتربت منه ميراي، والدته، لتعرف ما ألمّ بعزيزها. كان لا بدّ أن يكون هناك أناسٌ حتى تناديه عزيزي. لم يكن لتلك العودة القاسية إلى الواقع من نتيجة سوى جعله يهرب. نزل الدرجات، ولكن ليس كلّها. بعبارة أخرى، بقيت له درجة واحدة. ووجد نفسه بعد تدحرجٍ مشهديٍّ على درجات أحد جيرانه. وسط عجزه عن النهوض، شعر وكأنّه خنزيرٌ بريٌّ جرحه صيّادٌ مخمور. ضمّته بريجيت التي جرت في إثره بين ذراعيها لتسكّن من روعه. كان هكتور يرتجف. لم ينكسر أيّ شيء منه، ولكن التدحرج، إضافة إلى بعض خيبات أمل ذلك النهار، أرعبه. ذلك النهار الذي أخذ يبدو له طويلاً بعض الشيء. «لا تقلق يا حبيبي، أنا هنا...» وهي تقرأ بدقّة في ألم زوجها، أضافت: «نعم، سأقول لهم ن يغادروا».

فغادر المدعوّون الحفل المجهَض لعيد الميلاد.

بعد أن صعدا إلى شقّتهما، مدّدته على السرير. تألّم لرؤيتها في غاية الجمال، وحشرجت آلامه الأخرى بذلك الفائض العبثي. عرّته من ثيابه ومرّرت إسفنجة فاترة على احمرار جراح جسده. وغير عارفة جيّداً من أين تبدأ، لم تتجرأ على أن تسأله عمّ ألمّ به. لم تفهم كذلك لماذا حاول أن يبتسم

لها. كان سعيداً جدّاً باهتمامها به. لا شكّ أنّها تحبّه لتكون لطيفة جدّاً. قبّلته على جرح مع الأمل الغريب في أنّ يكون للعابها الحمضي تأثير مباشر في كيّ ذلك الجرح. كذلك امتصّت شفتاها سمّ اللافهم، هل حقّاً كان عليه أن يسعى لأن يعرف؟ مهما يكن من أمر، لم يسع هكتور أن يتكلّم. كانت بريجيت هي التي عليها أن تتكلّم.

« هل لحالتك علاقة بالفيديو؟...

أخيراً، لم يكن هذا هو الأمر... يصعب عليّ أن أفهم لماذا لم تقل لي أيّ شيء... انتظرتُ طيلة الأسبوع أن تتحدّث معي عن ذلك... كان ذلك زائفاً! كان تلفيقاً! لم ترَ الرجل إلاّ من ظهره، ونحن تظاهرنا بأننا نمارس الحبّ. في اليوم الذي ذهبت فيه، كشفتُ الكاميرات... ولم أدر ماذا أفعل. أردتُ أن أتّصل بك لتشرح لي. تساءلتُ إن كنتَ مجنوناً. ومن ثمّ، آثرتُ أن أنتقم بإخراج مشهدٍ عن الزنا... وأنت، لم تقل شيئاً! خلال أسبوع، لم تقل شيئاً... ظننتَ أنني كنتُ أخونك، وظللتَ صامتاً... لم يعد بوسعي تصديق أنّك تحبّني...».

إذاً لم ترتكب بريجيت فعلاً جنسياً في صالون منزلهما؛ كان الأمر يتعلّق بمكيدة. أبدت أسبوعاً من التحفّظ. كانت ابتسامة هكتور عريضة. لم تسمح له بلادة ذهنه أن يدرك بأنّ عليه، الآن، أن يسدّد هو الحساب. أن يفسّر لماذا صوّر امرأة حياته.

«لماذا صوّرتَني؟».

طرحت هذا السؤال، وغمرته عبرات خانقة. عامت وسط عدم الإدراك. حاول هكتور أن يهدّئ من روعها بالنظر، وأن يقول لها إلى أيّ درجة يحبّها. أراد أن يخلّدها بحبّه. وفي غمرة هذه الدوائر غير الواقعية فكّر في جوابها. هل لديه الخيار؟ هل بوسعه أن يفعل غير إخبارها بكامل الحقيقة؟ إن كانت تحبّ، سيكون بوسعها أن تفهمه، أليس كذلك؟ هل يُهجَر رجلٌ يعترف لكِ بأنّه يعشق أكثر من كلّ شيء طريقتكِ في غسل الزجاج؟ هذا تصريحٌ كسواه، دمارٌ خاصّ للشبق. النساء تحبّ الرجال غريبي الأطوار، الهامشيّين، أليس كذلك؟ أخيراً، لمعرفة ما تحبّه النساء، فكّر هكتور بأنّ لا بدّ على الأقلّ من معرفة اثنتين منهنّ. نهض، وأمسك بيد بريجيت، تلك اليد التي رآها قبل رؤية وجهها، غالباً ما يلتقي المرء نساء حياته أمام الكتب. سار الاثنان نحو الصالون. وأشار الرجل بأصبعه إلى الزجاج، وظلّت المرأة أمام الزجاج وسط لا إدراك كبير. إلى اللحظة التي شرح فيها موقفه:

«أردتُ أن أصوّركِ وأنتِ تنظفين الزجاج.»

القسم الرابع

نمطٌ من الشبق

1

مقتنعاً بأنّه لم يعد أحدٌ يريد لقاءه أبداً، تهيّأ هكتور لأن يحيا المصير المنعزل لمطرٍ صيفي. ليس لنا الحقّ في ألاّ نحضر المفاجآت التي يعدّها لنا الآخرون. طمأنته بريجيت مثلما كانت تجيد ذلك تماماً. استدعت العائلة والأصدقاء لتشرح لهم أسباب الفرار المفاجئ. اختلقت حادثة سقوطٍ في الشارع (حجة باطونية). كان عليه أن يفهم، أليس كذلك؟ مَنْ كان ليتصرّف بطريقة مماثلة؟ وحده جيرار بدا مرتاباً، بالطبع، ولكن لأنّه لم يدرك غالباً ما يُروى له، لم تكتشف أخته تلك النظرة المرتابة. في البداية، كان لا بدّ من إنقاذ ماء الوجه، وإيهام الآخرين بأنّه ليس هناك أيّ شيءٍ خطير، وأنّ حالات السقوط مألوفة في مجتمعاتنا المتزحلقة. وسترغم نفسها حتى على الضحك. النساء ينجحن دائماً في الحفاظ على رزانتهنّ وسط الانحراف المزمن للرجال. بعد أن بدّدت تساؤلات الآخرين، وجدت نفسها في مواجهة تساؤلها هي. تساؤلٌ عريضٌ وجوهري، تساؤلٌ لا مثيل له في تاريخ التساؤلات. ما التصرّف حيال رجلٍ يصوّركِ سرّاً، يُصوّركِ وأنتِ تنّظفين

الزجاج؟ بداهةً، بعد الحادثة الأوّلى، لم يكن بوسعها أن تعتبره إلاّ مريضاً. ولا يُهجَر المرضى، وخاصّةً الذين نحبّهم حبّاً مرضياً. لأنّها تحبّه، لم يكن هناك أيّ شكّ في ذلك. خلال عدّة أيام، ظلاّ محبوسَين في الشقّة. هي أصبحت ممرّضة. وهو كان ليتمنّى لذلك المرض أن يطول، فقط لإدامة ذلك الشعور بأنّه جالسٌ بين يدي حبيبته. جعله المرض غرضاً. شعر بأنّه محتَلٌ كبلدٍ مهزوم، لم يعد له أدنى مسؤولية عن جسده. التحمت علاقتهما الزوجية في تلك الأيام بصمت؛ بالتأكيد، كانت تلك المرحلة ضرورية قبل أن يتفاهما، ويفكّرا في المستقبل. ضمّد الصمت وضوح حبّهما. بمعزل عن الكلمات، نمّت الحركات عن حنانٍ مؤكّدٍ. تبادلت الأيادي الأحاديث مثل خيالات الظلّ، وأومأت ببوحٍ عذب. في تلك اللحظات، لامسا النشوة. نوعٌ من النشوة البهيمية البدائية. في الأيام الأخيرة، كشّر هكتور ليوهمها بآلامٍ في أنحاء مختلفة من جسمه. استسلم للحلم المجنون بحياةٍ في غياب الكلمات والرجال والأشياء. حياةٌ في تأمّل زوجته.

2

مع ذلك سوف لن يعيش أبداً حياةً كحياة النّاسك. أرادت بريجيت أن تعرف، وكان يجب أن تعرف. لماذا صوّرها، وخاصّة، لماذا لم يقل شيئاً. سؤالان سوف يحدِّد جواباهما مستقبلهما. فشل هكتور فشلاً ذريعاً في الشرح. أضجره الحديث عن نفسه. خشي من ألاّ تفهمه ومن أن تستقلّ طائرة لتغادر البلاد، وتستقلّ قطارات وبواخر لتبتعد نهائياً عنه. كانت الكلمة الأولى التي صيغَت في فمه هي كلمة «الانتكاس». بهدوء، نجح في استحضار ماضيه كجامع، وإخفاقه مع نيكسون، وكذبة السفر إلى الولايات المتّحدة... باختصار، تمتم حياته مثل رواية. واعترف أخيراً بأنّه أراد أن يجمع اللحظات التي تنظّف فيها الزجاج. كانت تلك مجموعته الجديدة، الأكثر عبثية، الأكثر جنوناً، المجموعة التي كانت تفسد حياته المستقرّة، ومع ذلك يخفق قلبه لذكرها. لم يكن قط سعيداً بمجموعة مثل سعادته بهذه المجموعة التي كانت زوجته بطلتها.

صاحياً على المأساة المستهترة، لم يستبعد من ذلك القدرة

الشهوانية للحظة كتلك. تردّدت بريجيت للحظة في المداهنة، قبل أن تقرّ بتفاهة فكرة كتلك. كان زوجها مريضاً. أخيراً، ومع ذلك، فإن قلّة من النساء قادرات على جعل أزواجهنّ مجانين لمجرّد أنّهنّ ينظّفن الزجاج... وكلّما وجدت ما تسمعه غير معقولٍ أكثر، كلّما عرفت أكثر أنّها لن تهجره.

انتحب هكتور. لم تعد حياته غير مرضٍ طويل الأمد. مذنباً بكونه قد انتكس بطريقة فظيعة، كان عليه أن يتحمّل هو مسؤولياته (أثار هذا التعبير غثيانه) ويرحل. لم يكن له الحقّ في إفساد حبّهما. إلى حدّ تلك المجموعة المرعبة، لم يكن قد ورّط أحداً في مرضه. كانت بريجيت ضرورية بالنسبة له؛ من دونها، لما وجِدَت المجموعة. كانت المعادلة تتعرّض لاختلالٍ نادر. على نحوٍ مأسوي، فتّش عن حقيبته. «عليّ أن أرحل!» صرخ رافعاً قبضته. وكأنّه ممثّلٌ تحت الاختبار لدور ممثلٍ بديل. الذين يرحلون بطريقة جد تفاخرية لا يرحلون أبداً. أخذت زوجته تضحك من فكاهاته ومن غرابة علاقتهما الزوجية. كانت قد حلمت في زمن شبابها، حيث تسيطر الأفكار الجاهزة، بحياةٍ مع رجلٍ قويٍّ وحامٍ لها؛ ينجبان، معاً، أطفالاً: صبيٌّ هاوٍ لكرة القدم، وفتاة تعزف برداءة على البيانو. لم تحلم قط بزوج سوف يسيل لعابه أمام طريقتها في تنظيف الزجاج. مع ذلك أحبّت هذه الفكرة أكثر من كلّ شيء: كلّ لحظة من حياتها لم تكن تماثل حقّاً فكرةً مكررة ومجترّة من قبل.

«ضع حقيبتك!».

امتثل هكتور منذ كلمة «ضع». وضعت أصبعاً على فم زوجها، العلامة المعروفة جيّداً التي تحثّ على الصمت. أمسكته من يده واقترحت عليه السير نحو الصالون. عبرا، ببطء. ممرّ بيتهما. وفي الحجرة التي كانت قد وقعت فيها صدمة الغسيل، قالت بصوتٍ شبيه جدّاً بصوت لوليتا:

«إلى هذا الحدّ، تحبّ أن أنظّف الزجاج؟»

هزّ رأسه من الأعلى إلى الأسفل. استطردت:

«أنت تعلم، يا حبيبي... لكلّ الأزواج استيهاماتهم ونزواتهم... ولئلاّ أخفي عنك شيئاً، أنا أفضّل هذا أيضاً على أن تصحبني إلى علبةٍ من علب المجون... علاوة على ذلك، هذا أمرٌ عمليٌّ لكونه يتيح لي تنظيف الزجاج... كلاّ، لا أرى أيّ إزعاجٍ في ذلك، بل أجد أننا زوجان طبيعيّان نسبياً... وأنا، زوجتك التي تحبّها، من واجبي أن أُرضي استيهامك...».

على ذلك، صعدت إلى المرقاة الصغيرة المخصّصة بمهارة لهذا العمل. لم يستطع هكتور، الذي لم يوافق على كلمة «استيهام» (كان الأمر يتعلّق بغرائز جنسية مرَضية يتعذّر كبتها، في حين أن الاستيهامات، عابرة يمكن تجاوزها)، أن ينبس ببنت شفة لأنّ حلقه قد جفّ ما أن بدأت حركة التنظيف. كانت في هذه القطعة الموسيقية خصوصيّة عظيمة تدفع تلك اللحظة إلى قمم مجموعته: كانت تلك الخصوصية هي الإعلان الذي قيل بشكلٍ خاصّ عن اللحظة. حدّقت زوجته مباشرةً في

عينيه لتخبره: «سأنظّف الزجاج من أجلك». . . لا ريب أنّ ذلك الغسيل كان يُعدّ من بين التُحَف؛ لكي لا نقول تحفة مجموعته. نعم، إنّه التمجيد. وفَهِمَ المقوّم الأساسي الذي، أكثر من الإعلان، ينجّحه في اللذّة: انعدام الإثم. للمرّة الأولى، استلذّ بانسحاره الشهوانيّ وسط الضوء. لم يعد مختفياً في عتمة غراباته.

ما إن أنهت التنظيف، نزلت بريجيت نحو زوجها. لم يعرف هكتور كيف يشكرها. قاطعته بريجيت:

«لا تشكرني. . . مرّة أخرى، هذا طبيعيّ في علاقة زوجية. . . وإذا أردنا أن تستمرّ علاقتنا الزوجية، عليك أن تُشبع أنت أيضاً استيهاماتي. . .».

توقّف عقل هكتور للحظة عند هذه العبارة الأخيرة. لم يفكّر قط أنّ لزوجته استيهامات. . . كانت بريجيت نقيّة جدّاً من ذلك. . . أو ربّما كان استيهامها، والحال هذه، إضاءة المكان وهي تمارس الحبّ. إضاءة المكان فقط لممارسة الطيش. لا بدّ أن هذا هو استيهامها. بريجيت اللطيفة جدّاً، بريجيت ذات الربلتين الرائعتين جدّاً، بريجيت التي اقتربت من أذنه لتكشف له استيهامها.

نجح هكتور في أن يسقط وهو جالس.

3

أحبّ هكتور ميزةً في زوجته لم تقدّر حقّ قدرها حتى ذلك الحين: ذكاء الموقف. كانت تضع الذكاء والموقف كليهما على قدم المساواة. وتحوّلت إلى مثيرة شهوانية في سبيل إنقاذ علاقتهما الزوجية. بخلق التوازن في العلاقة، لطّفت اختلافهما، وجعلت الحدّ الفاصل بينهما ليناً. كانت لدى بريجيت مصادر لا تنضب من الرحمة؛ لو أنّ الرحمة باتت فجأةً حيويّة لتسيير السيارات، لهاجمتها الولايات المتّحدة مباشرةً. قبّلت هكتور في العتمة، باتت ضمّاتهما أقل شهوانيةً؛ مارسا الجنس في عزلتهما. ظلاّ متضامين لأطول وقتٍ ممكن. بناءً على طلبه، ستنظّف الزجاج.

هكذا ستكون حياتهما.

كان من المبكر جدّاً اللقاء بالعائلة والأصدقاء (زعما بأنّهما في رحلة إلى الولايات المتّحدة لئلاّ يضطرا إلى تبرير انغلاقهما الاجتماعي)... قرّرا أن يُعيدا طلاء الشقّة كاملةً باللون الأبيض وتركا، برغبة منهما أو بدونها، الطلاء يطفح. أصبحا مطليين باللون الأبيض لبضعة أيام. عاشقان أبيضان على قاعدة بيضاء.

كان حبّهما فنّاً حديثاً.

طبعاً، لم يكن كلّ شيء ورديّاً تماماً. كان العيش كشخصين بهدفٍ وحيد هو الانشغال بتنظيف الزجاج رتيباً. قد يعوّضهما إنجاب طفل، ولكنّ ذلك يتطلّب وقتاً طويلاً، وهما يريدان أن ينشغلا في الحال. الحقّ يُقال، كانا في مرحلة إعادة بناء، ولا يسع المرء أن يتوقّع أيّ شيء في لحظات التضميد هذه. كانت كلّ المجموعات الأخرى لحياته تنتهي دائماً في يوم أو في آخر، ولكن بدت هذه المجموعة الأخيرة وكأنّها تكتسي رفاهية أسطورية. لم يعد يتحرّر من الرغبة في رؤية بريجيت وهي تنظّف الزجاج. تكرّرت الحركة ذاتها على الدوام، ومع ذلك كانت مختلفة جدّاً في كلّ مرّة. تحريك الرسغ، والتأوّه الخفيف بين شفتيها، بحسب اليوم والفصل، لم تكن تنظّف الزجاج بنفس الطريقة. اغتنت مجموعته بصرياً كأيّة مجموعة أخرى. وغطى المطر أحياناً كلّ شيء، وجعلت العاصفة من التنظيف فنّاً دقيقاً. ولكن ما أن تمرّ الإثارة، حتى يعود ويعاني من انحراف في المزاج. ولا يعود لديه سوى انتظار المرّة المقبلة، الرغبة المقبلة. عاودت هكتور الحالة التي عرفها طيلة حياته، ذلك القلق المستمرّ لجامعٍ، مأخوذاً بصراعات سلطة ديكتاتورية.

اضطرّت بريجيت لأن تغادر المنزل لشراء بعض الحاجيات، كان لا بدّ أن يتناولا طعاماً. كانت، في ممرّات السوبر ماركت، امرأة شابّة. صادها صبيٌّ عند رفّ الفاكهة والخضراوات، امرأة مرغوبة، حلمت أياد كثيرة، للحظة،

بالولوج إلى مقوّرة فستانها، والإمساك بنهديها لكي تنسى أصابعها. عرض صيّاد في السوبر ماركت ذاك أن يقدّم لها كأساً، وبالتالي أن يطارحها الغرام في نزلٍ رخيصٍ. تخيّلت نفسها وقد باعدت ما بين فخذيها، بالتأكيد ستكونُ قد شعرت بشيءٍ من اللذّة، هكذا، بالصدفة. البعض يسعى بالحظ. ومن ثمّ بعد ذلك، سوف لن يتكلّما عن الأدب؛ وحينما يرفع الستائر، لن يهتم بالزجاج المتّسخ لكلّ النزل. أضجرها ذلك سلفاً. أرادت أن تنظّف الزجاج.

خرج هكتور أيضاً. كان مغرماً بأن يسلك الخطّ السادس لمترو الأنفاق، الخط المحفوف بالكثير من اللحظات الأثيرية. رأى أنّ زجاج نوافذ العربات متّسخٌ. متخيّلاً زوجته تنظّف هذا الزجاج، تذكّر إلى أيّ درجة كان مزعجاً أن يعاني من انتصابٍ في مكانٍ عامّ. كان هناك ما يستلذّ به (فكرة معيّنة لعودةٍ إلى الحياة). مع ذلك، في الأنفاق، أحسّ بنفحاتٍ من الحرارة. شعر بأنه يصبح هو ذاته ذلك المترو الذي تبتلعه الحُفَر المظلمة.

نزل هكتور في المحطة التالية. شاءت الصدفة أن تُدعى تلك المحطّة «Montparnasse-Bienvenüe». لولا كلمة الترحيب الصغيرة هذه، لوضع بالتأكيد نهاية لأيامه. كانت تلك محطّة إنسانية اسمياً، واحدة من الأمكنة تحت الأرضية النادرة التي لم يكن ينتابه فيها، في مواجهة الفراغ، الخوف الجسدي من أن يُدفَع من ظهره.

4

بهدوء، انتعشت حياتهما. كانا يحاولان أن يسخرا من مجرى حكايتهما. يقومان بعملية غسيلٍ بسيطة وينامان. استعاد هكتور هيئة جديرة برجلٍ نصف عصري. أعلنا رسمياً عودتهما من السفر، وسيجري كلّ شيء في وضوحٍ تامّ. أخيراً، سيكون بوسعهما إشباع الاستيهام الغريب لبريجيت. لم يتمكّنا من القيام بذلك في ما مضى لأنّ ذلك الاستيهام كان يستدعي أن يدعيا إلى بيت أصدقاء لهم. اختارا مارسيل ولورانس (ولكن هل كان لهما حقّاً أصدقاء آخرون؟).

فتح مارسيل ذراعيه بأوسع ما أمكنه، في حدود ما أتاحت له الجدران ذلك. استقبلت لورانس، المتوقّدة تماماً، الزوجين على عجلٍ لأنّها كانت لا تزال مشغولة في المطبخ (وجبة شواء). خاف هكتور، المتضايق أصلاً، من السهرة. ولكنّ زوجته قدّمت له الكثير من عمليات التنظيف التي لم يخترها أو يطلبها فعلاً. بدت بريجيت فجأةً منحرفة، حتى أنّه كان يمكن أن تُلاحظ على وجهها بعض ابتسامات المرأة السهلة المنال.

بدت وكأنّها أدارت باستمرار هذا النوع من الاحتفال، وأخذت، واثقة بنفسها كفايةً، وقتها في إراحة شريكها. ولأجل ذلك، لم يكن لديها بديلٌ سوى القيام بما يأتي: بينما كان الأزواج الأربعة يرتشفون بعضاً من البانش[12] المرسيلي المنشّط، في برش الليمون، يعد ثلاث جرعات متتالية فاجأتها بأن، أثنت على الشقّة الجميلة جدّاً. لم تظلّ لورانس، وإن كانت رياضية رفيعة المستوى، فاقدة الحسّ حيال المجاملات المتعلّقة بطريقتها في إدارة بيتها. شعرت بالفخر لأن امرأةً قدّرتها. ولكن سرعان ما تحطّم ذلك الشعور على ملاحظة أخرى من بريجيت:

«في المقابل، إن كان بوسعي أن أسمح لنفسي... أرى أنّ زجاج بيتكم ليس نظيفاً تماماً».

بصق هكتور شراب «البانش». انفجر مارسيل ضاحكاً إلى أن صادف نظرة لورانس الكئيبة. بعد أن كانت على وشك الاستمتاع بالمجاملات الخاصة بعنايتها ببيتها، شعرت بأنّها في مواجهة ملاحظة بخصوص زجاج بيتها. تمتمت بأنّها في الواقع لا وقت لديها... أخيراً، نعم، لقد أهملت... باختصار، اعتذرت. قالت لها بريجيت إنّ ذلك ليس أمراً مهمّاً أبداً، واعتذرت لصراحتها، ولكن الصراحة من خاصّية الأصدقاء، أليس كذلك؟ نهضت بريجيت، مدفوعةً بجرأتها، نحو الزجاج.

---

(12) شراب كحولي تشتهر به مرسيليا، أهم مكوناته الشاي والسكر والحامض والقرفة.

«إن لم يزعجك ذلك، سوف أقوم فقط ببعض أعمال التنظيف البسيطة ليكون هذا الصالون في أحسن حالة. . . .

ثارت لورانس:

- ولكنّك جُنِنتِ! أنا من عليّ القيام بذلك! نحن في بيتي!».

في غريزة لم يستطع كبتها، صرخ هكتور: «كلاّ، دعي بريجيت تنظف الزجاج!» ثمّ، وقد أدرك غرابة اقتراحه، وكذلك الطريقة المفاجئة التي احتدّ بها، أردف بلهجةٍ أقلّ غطرسةً: «نعم. . .آه. . . إنّها تحبّ ذلك. . . تنظّف الزجاج. . . هذا بالضبط أمر لا يزعجها. . . أخيراً، سوف ترَيان. . .»

ما رأياه، مارسيل ولورانس، هو أنّهما كان قد دَعَوَا إلى العشاء مهووسَين غريبين.

كانت بريجيت قد أحكمَت تماماً ضربتها. تهيّج هكتور فجأةً وكان مستعداً لإشباع استيهام زوجته. ولكن حينما استدارت، كانت أمام ثلاثة وجوه جامدة. كان كل من مارسيل ولورانس يحدّقان فيها بحدّة. الغريب أنّ تصرّفها، الجريء بالتأكيد، أثّر تأثيراً بالغاً على مضيفيها. اتّفقنا، لم يحدث ذلك لانتقاد نظافة مكانٍ دُعيا إليه؛ ناهيك عن الرغبة في التداوي فيه. ولكن ها هو الأمر كأنّه لعبة، لم يكن هناك ما يستوجب التسمّر اندهاشاً. لم يتكلّم أحد، فشعرت بأنّها مضطرّة لأن تبرّر موقفها: «كلاّ، ولكن، هذا فقط لكي نضحك!». فجأةً،

انبسطت أسارير مارسيل ولورانس، وعادا إلى الواقع دون أن يعرفا تماماً ما حصل لهما. أخذا يضحكان، مدركين دعابة بريجيت. انتقلوا بعدها إلى المائدة.

لم يعد هكتور جائعاً كثيراً. كانت زوجته قد استثارته كثيراً، ولا يريد أكثر من ذلك شيئاً. كان عليه أن يتعشّى، بينما ظلّ على ذلك الغسيل غير المنتهي، أو المنجَز على عجل. لحسن الحظّ، كان موضوع العشاء، المفهوم اجتماعياً، ينصبّ حينذاك على الولايات المتّحدة. الموضوع الذي عرضوه آلياً، كما عهدوا أيام ولعهم بالكذب. ومن ثمّ كاد الشواء أن يجهز، فدعت لورانس، الوفية للتقاليد، هكتور إلى المطبخ. نهض هامساً، مستسلماً لأن تُجسّ خصيتيه. كالعادة. وإذ ازداد إثارة، اتّخذ المبادرة هذه المرّة، ووضع يده على نهدي لورانس. مصدومةً، مستاءةً، صفعته مباشرةً: «ولكن كلاّ، هذا لا يجوز! أيّها الخنزير الهائج!...». ظلّ صامتاً ونقل الشواء. وإذ كان لا يزال مذهولاً وهو في الطريق الذي يقوده إلى المائدة، لم يصدّق ما اكتشفه حينذاك: الولع بالكذب حاسّة فريدة.

نظّفت بريجيت الزجاج، وتلقّى هكتور الشهوانيّ المندفع صفعة مباغتة، بدا ذلك العشاء واعداً. ولم يعد الاستيهام سارياً. تلاشى الاستيهام عند وقت التّحلية. قبل ذلك، كان لا بدّ من هضم ذلك الشواء ناشفاً بعض الشيء. ولكن مع ما قيل خلال تناول المقبّلات، كان من غير الوارد انتقاد أيّ شيءٍ. كلّ

شيء كان لذيذاً، ولكن هل يمكن، للمرّة الثانية عشرة خلال ذلك المساء، الحصول على بعض الماء الإضافي؟ «هل الشواء ناشفٌ؟» سألت لورانس.

- «بالطبع لا»، أجابت حلوقٌ جافّة بصوتٍ واحد. كان ينبغي أن يُغرَق ذلك الشواء في بحرٍ من المَرَق قبل تناوله. أخيراً، أنهت التّحلية ذلك العشاء الرديء بجزيرةٍ عائمة على شكل خاتمة متواضعة لمهرجان. كانت الجزيرة بحصر المعنى تصارع كي لا تغرق، وسمّى مارسيل، كهاوٍ للنُكتة، ذلك تايتانك العائمة.

تردّدت بريجيت؛ لم تعد متأكّدة من أنّها تريد إشباع استيهامها. لا سيما أنّها لم تستطع التأكّد من أنّ تلك الرغبة الشهوانية ليست مجرّد صدى للتنظيف. طريقة حيويّة، في رأيها، لخلق الاستقرار في علاقتهما الزوجية. الحقّ يُقال، بتذكّرها لكلّ تلك اللحظات الشَبَقيّة في عتمة غرفتها كمراهقة عذراء، تلك اللحظات التي لامست ذاتها فيها بطريقة ما لا زالت غامضة، حصل لها أن راودت ذهنها صورٌ غريبة. تخيّلت رجلاً سوف تحبّه، رجلٌ سيكون قادراً بحبّه لها على... كلاّ، لم يكن من الممكن أن يراود ذهنها شيءٌ من هذا القبيل... كان لكلٍّ استيهامه، ردّدت وهي لا تزال ترتشف القليل من شراب البانش الحرّيف لحسن الحظّ. تعاظمت النشوة، اكتسبت بعض الثقة، ولمرّة واحدة، سوف لن تحتضر رغبتها المتصاعدة وسط الكبت...

أعطت إشارة لهكتور.

آنذاك، نهض فجأةً، وبدأ يتعرّى.

تحسّباً لما توقّعه، كان قد ارتدى فقط قميصاً وبنطلوناً من دون حزام. وهكذا، أصبح عارياً في غضون ثوانٍ. مرتبكاً بإفراط، ألقى نظرة ودّية على مارسيل. هذا الأخير الذي التقط أسرار التنظيف لم يُفاجأ حقّاً. في المقابل، تظاهرت لورانس بالحشمة (حتماً) بإخفائها لعينيها. كان قضيب هكتور قصيراً جداً، رخواً بعض الشيء. تزايدت إثارة بريجيت لفكرة أنّ رجلها كان محطّ الأنظار (كانت لورانس قد سحبت يديها لتفحّص الجسم الهكتوري).

«هل يمكن أن أسألك ما الذي حدث لك؟ سأل مارسيل.

- لا شيء... هذا فقط لأنني أردت أن أعرف رأيكما بقضيبي. ليس سوى الأصدقاء أستطيع أن أسألهم عن هذا الأمر. هذا مزعجٌ جدّاً لي، ولكنني أودّ أن تكونا صريحين...

- اسمع، أنت تفاجئنا بقصر...

- آه، كنتُ أشكّ في ذلك... هل تريانه صغيراً؟

- ولكن لا، ليس الأمر كذلك، أكّد مارسيل. هذا فقط لأنّه ليس هناك الكثير من نقاط المقارنة. أنا، لم أر منهم الكثير باستثناء قضيبي... ولورانس، لا أعتقد أنّها قد رأت أكثر من اثنين قبلي...».

كادت لورانس أن تختنق، ثمّ ثارت عصبيّةً:

«حسناً، أرى هذه الأساليب نابية جدّاً! أنت قادمٌ لتناول العشاء في بيتنا، لسنا في نادي تبادل! ولكن إن أردت أن تعرف

كلّ شيء، قضيبك في حالة متوسّطة، لا أكثر ولا أقلّ... لا أهمية له، وليست له أيّة ميزة خاصّة... يبدو لي رخواً بعض الشيء في منطقته القريبة من الخصيتين... (**احتدم على نحوٍ مفاجئ:**) حشفته متفرّعة ثنائياً على نحوٍ خفيف... تبدو لي تماماً بأنّك تعاني من القذف المبكر... في النهاية، لا يمكنني أن أكون متأكّدة من ذلك... (**صارخةً:**) في كل حال، أنت عدّاءٌ سريع! ليس بمستوى عالٍ! وهذا قضيب عدّاء!».

توقّفت فجأةً متفرّسة في الوجوه الهاذية لضيفيها. ولكن سريعاً جدّاً، تبدّدت غرابة تلك اللحظة في غرابة تلك السهرة. لم يعد لديها القدرة على التوقّف على التفاصيل (أخيراً...).

كان هكتور يترقّب بالنظر إشارةً من زوجته؛ سمحت له أن يرتدي ثيابه. على هذا، نهضا وغادرا شاكرين بحرارة على هذه السهرة اللطيفة. الحقّ يُقال، سوف لن يطيلا الإقامة عند مضيفيهما بعد عملهما الشائن. ومن ثمّ، وكما هو الحال غالباً، ما إن انكشَفت الأعضاء التناسلية، لم يعد هناك الشيء العظيم ليقولاه لبعضهما. عزا مارسيل ولورانس مسؤولية الشذوذ المفاجئ لصديقيهما إلى سفرتهما الأخيرة إلى الولايات المتّحدة. الأميركيون متقدّمون علينا بعشر سنوات، أكّد مارسيل، سوف لن أتعجّب من أن يعرض الرجال قريباً أشياءهم في ختام كلّ وجبة.

في الصيف القادم، سوف يسافران بالتأكيد إلى شيكاغو.

وهكذا كان استيهام بريجيت أن يعرض هكتور قضيبه.

على نحوٍ أدقّ، كان استيهامها أن يصبح قضيب زوجها موضوع الحديث، وأن يتفحّصه الجميع مثل حشرةٍ تحت عدسةٍ مكبِّرة. أحبّت وجهه الصغير المنزعج تماماً كرجلٍ قصير القامة محبوب. كان جسوراً بحيث كانت ستغسل الزجاج طيلة الليل لو شاء ذلك. أشبع كلٌّ استيهامه. كانا أخيراً زوجين كالآخرين (هل كانا سيفكّران في شراء بيتٍ صغير في الضاحية؟). قرّرا أن يعودا مشياً على الأقدام. على ضوء القمر، سارا يداً بيد، مصادفين كلّ الأزواج الآخرين العاشقين الذين كانوا يتمشّون يداً بيد. باريس مدينة كبيرة لكلّ الذين يتحابون حبّاً شائعاً جدّاً. انتصف الليل. وكان برج إيفل يتلألأ بوضوح، خلف السحر، هناك على الدوام موظّفون. وعلى ضفاف نهر السين، راود هكتور الحدس التالي:

«هل حقّاً كان ذلك استيهامكِ؟».

أخذت بريجيت تضحك.

«بالطبع لا، لم يكن ذلك استيهاماً! استيهاماتي أبسط من ذلك بكثير... استيهاماتي هي ممارسة الحبّ في دار سينما أو مصعد... أردت فقط أن أعرف ما أنت قادرٌ على فعله من أجلي، بالحبّ... بعد كلّ شيء، سأنظّف الزجاج طيلة حياتي لاستثارتك... أيّها المنحرف الصغير! وبالتالي، أردت أن أتحقّق إن كنتَ تستحقّ ذلك... هيّا تعالَ، أشعر بأن الزجاج متّسخٌ في بيتنا...».

5

كان كلّ شيء شبيهاً بزمن الأيام الحلوة. أراد هكتور اصطحاب بريجيت إلى المكتبة العامّة، وتنشّق بذرة حبّهما. أمام **أطلس** الولايات المتّحدة الأمريكية، ستلتقي أيديهما بالطبع. ليس للأيدي دماغٌ وإنّما ذاكرة للحبّ. لدى الدخول، انفصلا لكي يتمكّنا من خلق صدفةً أمام كتابهما. فكّرت بريجيت بكتاب كورتازار[13] الذي يسير فيه العشاق في الطريق إلى حين أن يلتقوا بعضهم - أخيراً. قرأته حينما كانت في الثامنة عشرة من عمرها، وهي في عطلة عند عمٍّ بدينٍ بعض الشيء. بمرورها أمام كل أولئك الطلاّب، لامست ذكرى شبابها. بدت لها حياتها سوريالية. وخاصّة بتأمّل كل تلك الرقاب الساكنة، أدركت إلى أيّ درجة كانت تحبّ تلك الحياة الخارجة عن المألوف. كان تجاوز الواقع لغةً تُبهِج قلبها. أخذت تمشي بسرعة أكثر، كاللحظة التي يتمّ فيها تركيز الكاميرا، في الأفلام، على البطلة. فلا يعود هناك سوى حركة

(13) الشاعر والروائي والعازف الأرجنتيني خوليو كورتازار. (المترجم)

الساقين. والموسيقى تُفسِد دائماً هذه المشاهد. لا بدّ من حظر الموسيقى على النساء، فالصمت هو نغمهم.

اكتشفا بعضهما من جديد أمام الكتاب، وتعانقا أمام الأغلفة الحمر.

غالباً، يكفي المرء أن يكون سعيداً بعض الشيء حتى لا يعود يشعر بشقاء الآخرين. في الحالة الراهنة، كان الأمر عكس ذلك. منذ أن أدرك أرنست عذاب شقيقه، تقرّب منه. يوم عيد ميلاده، لم يصدّق حجّة الانتكاس (مرات كثيرة، كان شاهداً على انحرافات شقيقه الصغير). كان هكتور قد روى له كلّ شيء. مقنعةً إياه بأنّهما زوجان كالآخرين، رفعت بريجيت عنه كلّ إثم. وقد أصبح قادراً الآن أن يذكر انبهاره بتنظيف الزجاج. استيهامٌ عجيب، فكّر أرنست. فأوضح هكتور أن الأمر يتعلّق أيضاً ولا يزال بالتجميع. كانت زوجته تُلبّي، بانتظام، رغباته لكي تتيح له النجاة.

«أنت أسعد الرجال!»، قال أرنست مذهولاً.

بدا هكتور مندهشاً، وسأل إن كانت جوستين لا تُشبِعه جنسياً. للمرّة الأولى، كانا يجريان نقاشاً حول علاقتهما بالنساء. أخذ أرنست، راغباً في الحديث عن نفسه، يتلعثم. استحال مظهر حياته الناجحة إلى كتلة غامضة، شبه ضبابية. لم يسمح لنفسه قط بأن يكون موضوعاً للنقاش. الحقّ يُقال، لم يرَ قط أنّ هناك كائناً بشرياً قادراً على أن يلعب دور الصديق الوفي. فدفعه شقيقه المتفتّح حديثاً إلى الاعتراف.

لم تكن جوستين هي المشكلة. كان لجوستين جسدٌ بوسعه أن يثير أيّ مراهقٍ كان، وأيّ رجلٍ يعتبر نفسه مراهقاً أبدياً. لها أسلوبٌ نادرٌ في التعامل في السرير. ولكنّ الزمن، في مأساته الأكثر تكراراً، كان قد أنهك ألعابهما الجنسية. كان إرنست يكذب على نفسه؛ ويعلم أنّ الأمر لا يتعلّق باستغلال الوقت بقدر ما يتعلّق بحبه الثابت للنساء. فقد خانها مع كلاريس، وأوشكت آثار الأظافر أن تضع نهاية لزواجهما. هل كان ينبغي أن تجري الأمور بهذا الشكل؟ رجعا إلى بعضهما ضعفاً (أصبح زواجهما ضعيفاً)، خوفاً من عزلةٍ ما مؤاتية لكلّ الانحرافات. سامحته، الأمر الذي عنى أنّها لم تستطع تصوّر حياتها من دونه. بذلك الفراق الجنسي، عرفت للمرّة الأولى أنّ زوجها كان يخونها. ظلّت مقتنعة بأنّ تلك المرأة هي عشيقته الوحيدة. إنّها مخطئة؛ لم يكفّ أرنست عن اختلاق كلّ أنواع الحكايات لكي ينجو. مهووساً بالنساء، بحركتهنّ وأناقتهنّ، لم يكن يتذكّر لحظة واحدة في حياته، لم تستحوذ امرأة، مجهولة أو معروفة إلى حدّ ما، على ذهنه. خلال استراحاته في فترة الغداء، حدث له أن سار في الشارع فقط ليرى النساء وهنّ يمشين. هذا الاستعباد في الهواء الطلق جعل منه عبداً ثاوياً في حضن الديكتاتورية الجنسية.

لماذا روى له كلّ هذا؟ رأى هكتور أنّ هذه الحكاية شائعة كثيراً. اعتقد بأنّ ما من عيبٍ في عاطفةٍ كهذه، أن يحبّ رجالٌ النساء بطريقة مفرطة، هستيرية. لم يُدرك أن أرنست حسده

على عاطفته الثابتة. كان شغفه بتنظيف الزجاج يجعله أحاديّ الزواج بطريقة لا تُصدّق. لم يكن يحبّ زوجته وحدها فحسب، بل، علاوة على ذلك، كان يحبّ فيها حركة محدّدة! بالنسبة لكلّ الرجال المنهوكين وسط الحركة المستمرّة للكعاب العالية. كان يمكن لهكتور أن يبدو أسطورة للراحة والاستقرار. ما اعتبره استعباداً مرضياً كان فردوساً مطهّراً. حلم أرنست بأن يحبّ جوستين بجنون حينما ستنظّف الزجاج. أراد، هو الآخر، أن يجرّب الانبهار الشهواني الثابت.

حينما وجد هكتور نفسه وحيداً، راوده شعورٌ بالاشمئزاز. لا يحقّ لمَن نُعجَب بهم أن يعرضوا لنا ضعفهم. تطايرت هيبة ذلك الأخ الذي كان مرجعاً، مثل هواء بالونٍ مثقوب. كانت زوجته تزيل عنه الشعور بالذنب، ويتوهّمه شقيقه أسطورةً، هو الذي كان بمثابة العجلة الخلفية للعربة الاجتماعية الفاخرة، غدا فجأةً رجلاً صلباً. بذلك الإيقاع، ما كنّا لنتوانى عن اعتباره رجلاً مهيباً. رجلٌ صلبٌ. أبهرته هذه العبارة. عمّا قريب، سوف يطلب الناس نصائح منه، وسيعرف كيف يسديها. سوف يقرأ الصفحات البرتقالية من صحيفة **لوفيغارو**، وسيصوّت أخيراً لصالح اليمين. بينما كان يهذي بلطف (يجب الاعتقاد بأنّهما قد تبادلا الكلام)، حلّ جيرار دون سابق موعد.

«أختي ليست هنا؟

- كلاّ، بريجيت ليست هنا.

- هذه فرصة مناسبة، لقد جئت للقائك أنت».

لم يسبق أن جاء أحدٌ للقائه دون سابق موعد.

لم يكن هكتور ونسيبه قد التقيا منذ فضيحة الابتزاز الشهيرة التي أسفرت عن التنكيل بهكتور. من المسلّم به أنّ لا أحد علِم بتلك الحادثة قط؛ فالخصوم في العنف يتوحّدون غالباً في الصمت. كان كلٌّ منهما يحتفظ بذكرى مدهشة عن ما بعد ظهيرتهما الرياضية، الخارجة على الرياضة. تعانقا للحظة طويلة في ذلك السبت. تفحّص جيرار وجه هكتور، وكخبيرٍ حاذق، أعجب بقدرته على الشفاء. لم يعد هناك عملياً أيّ ذكرى للكماته. بما فيها الأسنان، لأنّ سنّين جديدين كانا قد طويا في النسيان، بفضل الكالسيوم، السنّين اللذين تحطما آنذاك.

عرض هكتور فنجاناً من القهوة، أو أيّ نوع كان من المشروب الذي يبرهن على أنّه مضيافٌ متحمّس. كان جيرار، منذ عدّة أسابيع، قد فكّر كثيراً. شارف دماغه، غير المعتاد على هكذا عمل، على توتّر يكاد يكون خطيراً. باعثُ أفكاره: كذبة حياته. ما عاد ممكناً الاستمرار بهكذا طريقة! ليس للمرء الحقّ أن يُحَبّ ويُعجَب به لأسبابٍ زائفة. قبل تهديد صهره، كان قد نسي بأنّ الأمر يتعلّق بنتاجٍ صرف لولعه بالكذب. لفرط تكرار مآثره الزائفة، اقتنع بأنّه قد فاز بسباق ورزازات-الدار البيضاء. إذا كان الجميع قد صدّقه، فلا بدّ أن يكون ذلك صحيحاً بالطبع. ومن ثمّ، كان هناك أصدقاء الصورة المركّبة

(الجيران): هم أيضاً، استخدموا الصورة لإثبات حضورهم على منصّة السباق الشهير. وبالتالي، حدث لثلاثتهم أن تذكّروا السباق، مبتكرين في كلّ مرّة تفاصيل أكثر خيالية. كيف لن يصدّقوا ذلك في ظلّ هذه الظروف؟ إلى اليوم الذي جاء فيه هكتور ليزعزع أسطورة حياته. بعد الاعتداء، لم يعد بوسعه أن ينظر إلى نفسه في المرآة؛ من الجهة الأخرى، لم يكن يخادع. كانت المشكلة مشكلة الثقة بالنفس. ظلّ مقتنعاً بأنّ حياته، دون تلك الحادثة، لا تساوي شيئاً في نظر الآخرين.

في نظر الآخرين.

استعاد هكتور ذهنياً هذه العبارة. بدا له كلّ شيء على بساطةٍ شديدة. طيلة حياته، أراد هو الآخر، من خلال جمع الأشياء الأكثر تفاهةً، أن يبدو شخصاً مهمّاً من خلال تكوينه **هويّة** مادّية لنفسه. متربّياً بشاربين وبحساءٍ، ذهبت نقاطه العلامة هباءً. كان سباق ورزازات-الدار البيضاء مجموعة كغيرها. وجد كلٌّ غذاءه الاستيهامي. شرح هكتور المتخفّف من الإثم لجيرار ضرورة ألاّ يقول شيئاً. كان عليه أن يتحمّل، ويحفظ مصادر سعادته وهنائه.

«هل أنت سعيدٌ حينما تتكلّم عن هذا السباق؟».

كان الوجه المنوّر لجيرار يغني عن كلّ الخطابات. لم يكن له الحقّ، تحت ذريعة الشفافية الواهية، أن يحرم نفسه من متعته الكبرى. لأنّ تلك كانت طريقته في الاستمتاع، الإعجاب الذي يثيره في نظرة من يحبّهم. قد يبدو البحث عن الضياء صائباً، ولكنّه لا يجعل المرء سعيداً بطبيعة الحال. لا ينبغي السعي إلى

تدمير أكاذيبنا وغرائزنا الجنسية. قد يكفي الإقرار بها. فكّر من جديد بأخيه وبعذابه تحت ديكتاتورية النساء. الآن سوف يمكنه إيجاد الكلمات. تفرّس جيرار في وجه هكتور. بعد صمتٍ، أكّد أنّه ما كان عليه أن يعترف مع ذلك بأيّ شيء. كانت تلك نصيحة مَنْ أراد أن يفضحه! كان ذلك بمثابة عدم فهم أيّ شيء، وذلك إحساسٌ يعرفه جيرار جيّداً، عدم فهم أيّ شيء.

مقتنعاً بكلام صهره، تنفّس جيرار الصعداء من خلال حكمه بعبثية تلك الأسابيع التي انقضت في الاستجواب. في أعماقه، عرف تماماً بأنّه ليس في وسعه قط أن يعترف. كما في قضية رومان، الذي اضطرّ لأن يقتل بالرصاص والديه باعترافه لهم بالحقيقة. عادت أخته أخيراً. وجدها جميلة، ولكنّه لم يتوصّل إلى استنتاج أنّها مبتهجة تماماً. صحيحٌ أنّها تشعر بنفسها أفضل حالاً. ارتمت بريجيت على أخيها، سعيدةً جدّاً بلقائه. جسّت عضلاته، واعتبرت أنّ غيابه مؤخّراً ناجمٌ عن انشغاله البالغ بتزيين وضعه كمصارع رفيع المستوى. ردّ بأنّها محقّة تماماً، ليس من دون أن يلقي نظرة خفية على هكتور. وافقه هذا الأخير الرأي بإشارة منه. حينما يعيش المرء على كذبة مزيّتة، تجري الأمور بسهولة متناهية. يمضي الآخرون وقتهم في صوغ فرضيات وطرح أسئلة، في حين يكفي الكاذب أن يقول نعم أو لا.

لم تكن بريجيت، كامرأة جليلة معنية ببيتها، تُفاجأ حينما

يدعو ضيفٌ عائليّ نفسه بنفسه. كانت هناك على الدوام من حواضر البيت (تعبير ظريف) يمكن تسخينها بسرعة ودون عناية. بل ونسمعها تضحك في المطبخ، وحيدة وسعيدة جدّاً. ألم تشارف على الهستيريا بعض الشيء؟ تساءل زوجها. ومن ثمّ، فكّر بأمرٍ آخر، لئلاّ ينحرف نحو رغبةٍ في التنظيف مزعجة أمام جيرار.

رنّ الهاتف.

«أنا في المطبخ، هل يمكنك الردّ، يا حبيبي؟».

نهض هكتور. كان مارسيل على الخطّ. إذاً لم يكن غاضباً بسبب العشاء العُرْييّ، يا له من عزاء! لم يتجرّأ هكتور على الاتّصال بعد الذي حدث، متردّداً جدّاً في شرح كلّ الحكاية. كان صوت مارسيل صافياً بطريقةً لا تُصدّق. ولورانس قريبة جدّاً منه بحيث سُمِعَ صوت تنفّسها القويّ... همست: «إذاً، ماذا يقول؟». سدّ مارسيل السمّاعة ليردّ على لورانس: «ولكن انتظري، كيف تريدين أن أكلّمه، وأنتِ تلتصقين بي هكذا! دعيني أوّلاً ألطّف الجو!». إذا كان مارسيل دائماً ودوداً بطريقة لا تُصدّق مع هكتور، فقد بدا أن الحديث الدائر كان متجاوزاً لكلّ لحظات الودّ تلك. يمكن القول إنّ مارسيل كان يداعب صديقه. قال إنّه قد مرّ زمنٌ طويل لم يلتقيا خلاله، وأنّه قد اشتاق إليه، وأنّه لا بدّ أن يقوموا أربعتهم برحلةٍ ذات يوم، وأن يكون هناك عشاءٌ جديد قريباً (دون أيّ تلميح إلى مشهد التعريّ)، الخ. أخيراً، سأل عن حال بريجيت. توقّف مارسيل واستعاد أنفاسه. نعم، كيف حالها؟ اعترف هكتور بأنّه قد

كشف عند زوجته بداية هستيريا، وضحك. التقط مارسيل في الحال تلك الضحكة ليضحك بدوره. أخيراً، تجرّأ على أن يسأل: «ها، لورانس وأنا، نودّ كثيراً... أخيراً، قد يبدو لك هذا غريباً... أن تعاود بريجيت غسل زجاج بيتنا...» انفجر هكتور في ضحكة مجنونة، أمرٌ لا يُصدّق أن يكون للمرء أصدقاء مضحكين إلى هذا الحدّ. وحينما رأى بريجيت تخرج من المطبخ، أغلق السمّاعة، إذ عليهما أن يأكلا.

ما إن أصبحا حول المائدة، سألت بريجيت عمّا كانا يريدانه، وخاصّة إن كانا غاضبين بسبب ذلك المساء.

«ليس أنهما غير غاضبين فحسب، بل وقد مازحني مارسيل سائلاً إيّاي إن كنتِ تريدين الذهاب لتنظيف زجاج بيتهما!

- آه هذا مضحك! إنّهما ينتقمان...».

لم يفهم جيرار شيئاً من ذلك الحديث، فاستعاد زمام الأمور، وذكر، بمحض الصدفة، ورزازات-الدار البيضاء.

6

زارت بريجيت والديها. كانت تحاول أن تذهب لرؤيتهما مرّة في الأسبوع. وحينما لا يذهب هكتور هو الآخر لرؤية أمّه، يُصاحبها دائماً بسرور. كان حموه وحماته والدين مثاليين. بسيطان، لطيفان، ودودان، يمكن الحديث معهما حول مختَلَف الأمور. منذ بضعة شهور، شاخا على نحوٍ مرعب. خاصّة الأب الذي لم يعد عملياً بوسعه السير على قدميه. طيلة حياته، كان يعشق الخروج من بيت الزوجية ليقوم بنزهات، تطول أو تقصر. يدخّن غالباً سجائر في المقاهي، ويلعب بورق الشدّة وهو يروي حماقات عن النساء. لا شكّ أن شريكته كانت تتسامح مع مغامراته في الهروب من البيت. وإذ لم يعد بوسعه المشي، كان أكثر ما يغيظه هو بالتأكيد رؤيته لزوجته طيلة النهار. الشيخوخة تقوّض المدى الحيوي للأزواج. ينتهون بالتكوّم على بعضهم وكأنّهم يستعدون للرحيل. في هذا العمر حيث لا يعود لهم الشيء العظيم ليقوله وأحدهم للآخر، لا بدّ من إطلاق النزّهات. كانت بريجيت تتحوّل، خلال زياراتها، حَكَماً. تستند إلى النقاط الإيجابية، ولم تسعَ فعلياً للمصالحة

بينهما. قلّ كلام والدها، وعانت من عدم إيجاد مواضيع نقاش تهمّه. لم يكن يريد قط الحديث عن الماضي. ولا عن الحاضر ولا عن المستقبل في النهاية. وبالتالي، كانت ترنو إلى ذلك الرجل المسنّ، الذي هو والدها. وجهه متغضّن بجلدٍ منقبضٍ كالزمن الذي تبقّى له في الحياة. فكّرت، وهي تراقبه، دون إحباط، أكثر من أيّ وقتٍ مضى بأنّه لا بدّ من الاستمتاع بالحياة. لا شكّ أنّ وجه والدها، في تداعيه، قد أرخى بثقله على سلوكها خلال أزمتها الزوجية.

كانت بريجيت تغادر دائماً بطريقة حيويّة؛ وقبل انغماسها في الشؤون الصغيرة لحياتها اليومية، يتنهّد والدها: «آه، هذه ابنتي!». كانت تخرج لتتبضّع مع والدتها، وتشتري باستمرار هدايا لتضفي الحياة على المكان. خلال زيارتها الأخيرة، ذكرت والدة بريجيت رغبتهما في الهجرة من فرنسا، للذهاب إلى دارٍ للمسنّين في طولون. بصراحة، سيكون من الأصعب بالنسبة لها ولشقيقها الذهاب لرؤيتهما، أَلم تكن تلك إستراتيجية إبعادٍ، كمرحلة أخيرة قبل الموت؟ لم تشأ أن تفكّر كثيراً في ذلك، ظلّت تركّز على الأشياء الملموسة. تكلّمت من جديد على مدام لوبيز، الخادمة الرائعة التي طردتها أمّها لسببٍ غامضٍ نسبياً: «إنّها لا تجيد القيام بأيّ شيء كما ينبغي!» ربّما كانت تلك طريقة لمعاقبة الذات لأنّها لم تعد قادرة على القيام بذلك. احتدّت بريجيت ورأت أنّه كان ينبغي إيجاد بديلٍ عنها. ألن يغرقوا بذلك وسط القذارة؟ سألت والدها عن رأيه في

الأمر، فسخر من ذلك بكبرياء. فلم يعد لدى بريجيت من بديل سوى استخدام المكنسة الكهربائية وإزالة الغبار عن أثاث المنزل. حينما تأكّدت من اتّساخ الزجاج، لم تتجرأ على القيام بتنظيفه. أخذت تبتسم، خاصّة وهي تفكّر بالعشاء في بيت مارسيل ولورانس. ومن ثمّ، انطلقت في تنظيفه. كان السياق مختلفاً كثيراً!

برؤيته لابنته تجدّ في العمل، ثارت أعصاب والدها على أمّها: « لا أريد أن أعرف شيئاً، ولكن في الأسبوع القادم، ستتّصلين بمدام لوبيز!» كان ذلك تماماً ما أرادته بريجيت، إعادة الحياة إلى هذا المكان، أن ينخرط والدها من جديد في الحياة اليومية. نظفت الزجاج بطريقة ممتازة أدهشت أمّها... فكّرت في عبارة «وكأنّها تقوم بهذا كلّ يوم» دون أن تعرف تماماً إلى أيّ درجةٍ كانت محقّة. طلب منها زوجها بلطف ماءً ليشربه؛ منذ ثلاثة عقود على الأقلّ لم يسبق أن طلب أيّ شيء **بلطف** من زوجته الشكِسة. جفّ حلقه فجأةً. هي أيضاً كانت عطشى. مع ذلك بدا لها وكأنّها قد شربت كأساً كبيرة من الماء قبل خمس دقائق خلت.

بعد دقيقتين من عمليةٍ غسيلٍ تمّت بفاعلية كبيرة، أدارت بريجيت رأسها. ذكّرتها النظرة بنظرة مارسيل ولورانس. كان والداها، لأوّل مرّة منذ أمدٍ طويلٍ جدّاً، جالسين جنباً إلى جنب. توحّدهما حقيقةُ التأمّل.

«كم أنتِ جميلة، يا ابنتي!» قالت الأمّ. أمّا الأب، فقد شعر بأنّه متضايق، يرهقه بإحساسٌ لطيفٌ مثلما هو غير صحّي. لم يستطع السماح لنفسه بأن يعترف بذلك -كانت ابنته الرائعة- ولكن بدا له تماماً بأنّه قد أحسّ بإثارةٍ خفيفة. كانت لها طريقة لطيفة جدّاً في تنظيف الزجاج، إذا... كيف يمكن قول ذلك... أخيراً... إذا...

«قد لا نضطرّ إلى الاتّصال بمدام لوبيز... إن لم يكن ذلك يُزعجك كثيراً، عزيزتي... سيكون وسعك أن تنظّفي الزجاج من حينٍ لآخر...».

شعرت بريجيت في نبرة والدها ضعفاً عاطفياً. كان ضعفه مؤثّراً للغاية. وافقت بريجيت على أن تقوم بذلك. أبدت موافقتها بعبوسٍ لذيذ، بطريقة النساء الشرسات المعفيّات دائماً. بعد تنظيف الزجاج، قبّلت بحنان والديها. شعرت بأنّ شيئاً غريباً قد حدث. كان في وسعنا الاعتقاد بدءاً من تلك اللحظة بأنّهما سيكونان أخيراً سعداء. بذل والدها جهداً، بدا له إلى ذلك الحين صعباً للغاية، بنهوضه من أريكته ليقف إلى جانب زوجته؛ على درج المدخل، تبادلوا، معاً، إشارات الوداع. في طريق العودة، تركت بريجيت أفكاراً لطيفة تتقاذف في داخلها. بدا لها- وكانت تلك نزوة سامية - وكأنّها امتلكت فجأةً موهبة إعادة والديها إلى الحياة.

7

كان في داخلها غموضٌ شهوانيٌّ غريب. نظّفت بريجيت الزجاج بطريقة فريدة. بعد التأثّر لرؤية والديها في تلك السعادة الغامرة، أُعجِبَت بغرابة ما حدث. بعد زوجها المدمن، وأصدقائها الذين أرادوا استعادتها، كانت تلك المرّة الثالثة التي تتسبّب فيها بمسرّة تداني التلذّذ وهي تنظّف الزجاج. كان لوالدها نظرة هكتور نفسها. شعرت بضيقٍ سرعان ما تبدّد: لا شعورياً، عرفت بأنّها وحدها المسؤولة عن الانسحار العابر الذي أثارته. لا بدّ أنّ كلّ كائنٍ بشري يمتلك طاقة جنسية غريبة، لكن القادرين على العثور عليها نادرون. بعد مراهقتها المكبوتة، والسنوات الأولى من بلوغها حيث كانت تعتقد نفسها غير قادرة على إثارة إعجاب رجلٍ، أصبحت قوّة شهوانيّة. ببطء، تصاعدت الإثارة. كان لكلّ شيء تفسيره. راقبها الناس في الشارع، تقافزت، وبعد ثانية سكنت دون حراك. ربّما اعتبرها الناس مجنونة.

لم يرغب هكتور في قيلولة ذلك اليوم. حاول، عبثاً،

إيجاد انشغالٍ مبتَكر. لحسن الحظّ، عادت بريجيت صارخةً: «أنا مثيرة للشهوة بطريقة لا تُصدّق! هذا خطئي!». كرجل البيت، تحمّل هكتور مسؤولياته. داعب شعر زوجته. كان عليه أن يطمئنها في الحال؛ أَلَم يكتشف عندها بداية هستيريا؟ صحيحٌ أنّها لم تكن واضحة جدّاً؛ يختلط كلّ شيء في ذهنها، حاولت أن تشرح لزوجها بأنّه لم ينتكس أبداً. منذ لقائهما، ومثلما أمِل ذلك، لم يعد مصاباً بداء التجميع. حاول أن يُجلِسها، ويقدّم لها كأساً من نبيذ بوربون المعتّق، ولكن دون نتيجة، هزّته وهي تردّد: «ولكن ألا تفهم؟» هزّ رأسه سائلاً. هي فهمتْ أخيراً (النساء) تماماً، بينما هو لا يزال بحاجةٍ لبعض الوقت لكي يفهم (الرجال).

*

إذاً لم يكن هكتور قد انتكس قطّ. بلقائه بريجيت (جسد المرأة، الفريدة)، تعافى من التجميع. ولكنّه، في غرابة رومانسية، كان قد صادف المرأة الوحيدة التي امتلكت طاقة جنسية عجيبة وهي تغسل الزجاج. راغباً في أن يعيش تكراراً تلك اللحظة مهما كلّف الثمن، ذاهباً إلى حدّ تصوير اللحظة الحاسمة، اعتقد بلا ريب بأنّه قد أُصيب، في حين لم يسبق له قطّ أن كان رجلاً كغيره من الرجال بهذا القدر.

*

لا يمكن للمرء أنّ يحبّ بجنون، ويرغب في جمع أشياء أخرى. لطالما اقتنع هكتور بذلك. وبات رجلاً ساكن الروع تعافى حديثاً، يوم تجنّب قيلولةٍ، من مرضه. لن تغسل

بريجيت بعد الآن الزجاج أبداً؛ عليه إذاً أن ينفطم. درس الزوجان الطرائق الممكنة، وبعد ذلك بستّة أشهر، لم تعد بريجيت تغسل الزجاج بغرض تلبية رغبات زوجها، (استخدما تقنية أمريكية اشتملت على التباعد التدريجي لأوقات غسيل الزجاج (كان لدى الأمريكيين فنّ اعتبار التقنيات الواضحة تقنيات أمريكية). حصل لبريجيت، دون أن تخبر هكتور بذلك، أن نظّفت الزجاج رغبةً منها، هكذا دون سبب، كنوعٍ من استمناء. في تلك الأيام، كان يشعر، وهو عائدٌ إلى البيت، بأنّ الزجاج نظيفٌ؛ فتراوده أفكاره القديمة. حاول ألاّ يفكّر في ذلك، لم يكن ذلك سهلاً على الدوام. واجه الزوجان الملتئمان من حينٍ لآخر بوادر انتكاسةٍ، وتغلّبا عليها بلطف.

الآن، أصبح كلّ شيء من الماضي.

شكّل هكتور وبريجيت اتّحاداً راسخاً قاوم تقلّبات مرعبة. كانا جميلين (على أيّ حال، كانا معجبين ببعضهما)، ثريّين نسبياً، لم تعد لديهما فعلياً مشاكل نفسية (ظلّت هنا وهناك حالتان أو ثلاث من الرهاب ولكنّها لا تستحقّ الذكر في كتاب)، وقد أعادا طلاء شقّتهما منذ زمنٍ قريب. فظهر المشروع المذكور على نحوٍ غامضٍ مراراً عديدة، والذي لطالما رُفِض، مرّة أخرى في اللحظة المناسبة: مشروع إنجاب طفل. بدت العبارة ثقيلة، مرعبة. يُدعى الطفل ثمرةَ الحب. لإنجاب طفل، لا بدّ أوّلاً من ممارسة الحبّ. حسبت بريجيت الفترات

المناسبة شارحة لهكتور بأنّ يوم الخميس هو الأفضل دائماً للإنجاب. كان يحب ذلك اليوم كثيراً. استراح جيّداً يوم الأربعاء وحقّق نتائج باهرة في اليوم الموعود.

لم يكن هكتور فخوراً قط مثلما كان في ذلك اليوم الذي أحسن فيه إصابة الهدف. احتفلا كما ينبغي بالإعلان، وستتضخّم بريجيت بحملها تدريجيّاً. اشتهت أن تأكل الفراولة. كانت تشعر بغثيان. لم يحب هكتور الفراولة، فهذا يشعره بالغثيان. الوالدان المستقبليان فكرا بمستقبل الطفل، بتفوّقه الدراسي، وبالمخدرات اللطيفة التي قد يسمحان له باستهلاكها. بدءاً من الشهر السابع، أصبحت بريجيت فعلاً ضخمة جدّاً. سُئِلَت إن كانت تحمل فريقاً لكرة القدم (الناس غالباً مضحكون). لزم الزوجان البيت طيلة الوقت. يذهب هكتور لشراء الحاجيات، وفي رفوف السوبر ماركت، لم يعد يفكّر مجرّد تفكير بالمجموعات. طفله، لم يفكّر سوى بطفله. قرّرا ألاّ يعرفا جنسه. بغرض المفاجأة. كان هكتور يعاني خوفاً رهيباً من كلّ ما يخصّ البيولوجيا؛ لم يكن يرافق زوجته أثناء جلسات تصوير الجنين.

وكان احتمال حضوره للولادة ضعيفاً.

ولكن، جاء اليوم الموعود، توسّلت إليه البقاء إلى جانبها في غرفة الولادة. غارقاً في العرق، وفي فوضى دقّات قلبه، تغلّب ببسالة على قلقه. كان بوسع زوجته أن تفخر به؛ ثمّ فكّر بأنّ هو الأحرى به أن يفخر بها. . .أطلقت بريجيت صرخات،

منفرجة الفخذين. كانت تلك هي إذاً، معجزة الحياة. أعلنت القابلة أنّ عنف الرّحم نصف مفتوح، الأمر الذي عني بأنّه لا يزال هناك نصفٌ آخر يجب التغلّب عليه.

انفتح عنق الرّحم إذاً مليمتراً بعد مليمتر؛ فكلّ كائن بشري، بوصوله إلى الدنيا، يصنع نجمه. كان حدثاً، حدثاً سعيداً. تنعّم الطفل بلحظاته الأخيرة وسط الغزارة الكبيرة للدم والأخلاط، وكان محقّاً في ذلك تماماً، إذ هناك القليل من الفرص لأن يعيش ثانية تلك الأحاسيس نفسها؛ اللّهم إلاّ الاستحمام عارياً في مياهٍ جليدية بعد شرب ثلاثة لترات من الويسكي الايرلندي. خرج هكتور. كان الجميع حاضرين: والدته، والدا بريجيت، جيرار، أرنست وعائلته، مارسيل ولورانس... كانت الأمومة تستقبل كلّ شخصيات حياةٍ. ساندوا هكتور وردّدوا له بأنّ الآباء **مغامرو الأزمنة الحديثة**. أحبّ كثيراً هذه العبارة؛ فتساءل عمّن يكون الأبله الذي استطاع أن يتفوّه بهكذا بلاهة، ولكنّها كانت تناسبه. وحقّاً كان له رأس مغامرٍ بلحيته المطلقة منذ ثلاثة أسابيع (ما عاد في وسعه أن يحلق ذقنه لأنّه، تضامناً مع بريجيت، كان هو الآخر قد أعدّ حقيبته للذهاب إلى المستشفى يوم الولادة؛ في تلك الحقيبة، وضع محفظة أدوات زينته). شكر الجميع على قدومهم، ووعد بأنّه سيمرّ عليهم ثانية ما أن يستجدّ جديد. أيّ رجلٍ كان، يمكن الاعتماد عليه في المناسبات الكبيرة. سيصبح أباً، وشعر بأنّه قادرٌ على أن يقوم بهذا الدور.

صرخت بريجيت. فضاعفوا المسكّن. كان هكتور من جديد إلى جانبها، بدا هادئاً. وجد أن زوجته جميلة مثل امرأة ستضع وليدها. ضغطت بقوّة أكثر فأكثر. قصّت القابلة خصلةً من شعر الطفل الذي بانت جمجمته الطرية. تأمّل هكتور في تلك الخصلة بتأثّر بالغ... بطريقة فائقة الشرود، لم يستطع الامتناع عن التفكير في مجموعة مارسيل. كان الأمر يتعلّق بانعكاسٍ لحياته السابقة التي لم يكن يتحكّم بها تماماً؛ حتى وإن لم يعد يجمع أيّ شيء، كان يواصل التفكير غالباً جدّاً في المجموعات. باختصار، كان ذلك على مدى ثانية فقط، ولكنّه فكّر: إذا كانت فتاة، ها هي خصلة ستكون جوهرة مجموعة مارسيل... وفكّر من جديد مليّاً بنموّ طفله؛ كان ذلك الطفل الذكيّ جدّاً قد أخذ مكانه تماماً لكي يخرج. ضغطت القابلة الثانية على بطن بريجيت لتساعد الطفل على الخروج. أخيراً ظهرت الجمجمة كاملة تقريباً؛ وكأنّها مخروط. لم يكن هكتور قد رأى أيّ شيء من ابنه بعد، وقد سبق وبدا له مثل النعمة المجسّدة.

مصحوباً بالصرخات الدافعة، خرج الطفل وصرخ باكياً بدوره. وضِعَت الوليدة على بطن الأمّ... كانت بنتاً! ذرف هكتور أجمل دموع حياته. خرج للحظة لكي يصرخ في الممرّ: «إنّها بنت!».

تأمّل المعجزة التي أطلقت صرخات صغيرة بين ذراعيّ أمّها. ابنتي، ابنتي، لم يستطع هكتور أن يفكّر بأيّ شيءٍ آخر.

لقد أنجب للتوّ. كانت ابنته حيويّة. حيويّة وفريدة. لقد سبق وقرأ في كتب متخصّصة بأنّ الطفل يبقى لبضع دقائق على بطن أمّه قبل أن يؤخَذ لأوّل حمّام له. بغرابة، لم يستغرق المشهد أكثر من حوالى ثلاثين ثانية. أخذت القابلة الثانية ابنته دون حتى أن تطلب منه مرافقتها. في الكتب، روي أنّ الأب، إن كان حاضراً، يقوم بأوّل حمّام للوليد. وهنا، لم يحصل شيءٌ من هذا القبيل. حتى أنّ القابلّة لم تنظر إليه... بالكاد حظي بالوقت الذي عاين فيه ابنته. ظلّ ممسكاً بيد بريجيت وفجأةً، احتضنته بشدّة باكيةً. بدا وكأنّ هناك تراجعاً في حالتها.

في قاعة الانتظار، تعانقت العائلة كلّها مهنّئةً. بنت، إنّها بنت، ردّد الجميع معاً. لم يخطئ هكتور: هناك تراجعٌ في حالتها. منهك الدماغ، لم يسعه أن يحدّد ذهنياً ما بدا له كتصوّرٍ غريب. سندت ممرّضة جديدة بريجيت المنهَكة والمحتاجة إلى الشجاعة. شدّت بقوّة على يد هكتور. أخيراً، استطاع أن يتبيّن الواقع بوضوح: توأمان. لم تكن قد أخبرته بشيء، لم تكن حاملاً بطفلٍ وحيد وإنّما بطفلين! من جرّاء الصدمة، كاد أن يُغمى عليه. نصحته القابلة بأن يجلس. أقلق انفعاله الجميع. وهكذا راقب ولادة طفله الثاني. هذه المرّة، كان صبيّاً! قبّل هكتور زوجته، وكابنته الأولى، وضِع الوليد على بطن أمّه.

«ولكنّكِ لم تخبريني بشيء...، تمتم هكتور.

- كلاّ، هذه مفاجأة، يا حبيبي.»

قفز هكتور إلى الممرّ، وصرخ: «إنّه صبيّ!».

أغرق هذا الإعلان الجديد الجميع في الحيرة، وخاصّة جيرار الذي قلّب في كلّ الاتّجاهات هذه المعادلة المجنونة: ولكن إمّا بنت أو صبيّ... لا يمكن للوليد أن يكون بنتاً وصبيّاً في آن... أخيراً، أحياناً، يمكن لهذا أن يحدث... ولكن ليس في هذا العمر المبكر جدّاً... أو إذاً...». طلب حبّة أسبرين من ممرّضة مرّت من هناك.

ثملان سعادةً، انتقل الوالدان، الأب شارد الذهن والأم عاجزة عن فهم أيّ شيء، إلى عالمٍ آخر. أراد هكتور اللحاق بابنه إلى الحمّام ولكن، من جديدٍ، أخذت قابلة الطفل. في همسة خفيضة، اعترفت بريجيت لهكتور: «لم أخبرك بكلّ شيء...

- ماذا؟

- إنّهم ثلاثة توائم!».

قضم تشنّجٌ الكلمة. وأخذت بريجيت تضغط مع ما تبقّى لها من قوّة. كانت امرأة استثنائية، ثلاثة أطفالٍ دفعة واحدة. نظر إليها هكتور وكأنّها كائنٌ من خارج الأرض. كان يحبّها حبّاً سامياً. مقدامةً، أنجبت إلى الدنيا الابنة الثانية، وذرفت، مرتاحةً، الدموع بغزارة. ذهبت البنت الصغيرة لتنضمّ إلى أخيها الكبير وأختها الكبيرة لإجراء الفحوصات الطبّية وبعد ذلك ببضع دقائق، أعلنت القابلة بأنّ الأطفال الثلاثة في حالةٍ

ممتازة. أضافت بأنّها نادراً ما رأت ولادة ثلاثة توائم تسير بهذه السهولة.

وضِع الأطفال الثلاثة جنباً إلى جنب؛ بدوا متماثلين كالقطع الثلاث لمجموعةٍ. لم يكن هكتور يصدّق بأنّه والد هذه الكائنات البشرية الثلاثة. قبّل زوجته، وفي هذه القبلة أودع كلّ الشجاعة التي كانت تلزمهما. **الآباء هم مغامرو الأزمنة الحديثة**، فكّر من جديد بهذه العبارة. مع ثلاثة أطفال بضربة واحدة، استحقّ على الأقلّ تسمية البطل.

تشرين الثاني 2002 – آب 2003،
ورزازات – الدار البيضاء

الطاقة الإيروسية لزوجتي

يمكننا أن نقول إن بطلنا «هكتور» هو جامع أشياء، لكنه بعيد عن مقارنة المرأة بالشيء. ويقلقه عدم الإخلاص.

يذهب كل سبت ليسعد والديه في زيارته التقليدية. يقف أمام الباب مع ابتسامة عريضة، مهما كان حاله. يعبّر عن سعادته ويمتدح الحساء الذي تعده والدته. وهي بدورها تودّعه دائماً إلى الباب وكأنها مضيفة طيران تقول له سافر على «خطوط حسائي» مرة أخرى.

درس بطلنا القانون دون أن يكمل دراسته، ولم يكن يهتّم بأي شيء عدا تكوين المجموعات: وبعد أن امتلك تشكيلة واسعة من المجموعات: دبابيس، طوابع، أوراق لفّ الصابون، الضجيج عند الخامسة صباحاً، الأقوال المأثورة، الصفحات الأولى من الروايات، بيض العصافير، الحبال، عيدان المقبّلات. بدأ بجمع وترتيب مجموعة امرأته.

كيف يمكن جمع الشغف والإثارة والطاقة الإيروسية؟

6059

ISBN 978-9953-68-348-4

9 789953 683485

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب: 113/5158